
ألف ليلة وليلة
حسن جوهر
محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطار
٨

ألف ليلة وليلة

الجزء الثامن

أبو الحسن و جاريته تودُّد

كتبه

حسين جوهر . محمد أحمد برانق
أمين أحمد العطار

الطبعة الثانية



دار المعارف

رسوم: الفنانة النمساوية ستيلا يونكرز

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

الجزء الثامن



حاسب

(١)

الحكيمُ دانيالُ ذاع صيتُه ، وكثر تلاميذه ، واشتهر أمره ؛ وكان حكماء زمانه يحضُرون درسَه ، ويستمعونَ له ، ويعوّلون عليه .

لم يُرزَق هذا الحكيمُ ولدا ، وكان دائماً مشغولَ البالِ كثيرَ التفكير ، ويتمنّى أن يرزقَه اللهُ ولداً يرثُ علمه وحكمتَه من بعده ؛ وكان كثير الدّعاء لله أن يرزقَه ولداً يخلفه من بعده ، فاستجابَ الله دعاءه وحملتْ زوجته .

ولأمرٍ من الأمور خرجَ فى سفرٍ ؛ فركبَ البحرَ ، ومعه كتبه ، وبعد أن سار بهِ المركب بعيداً طغتْ عليه الأمواجُ ، وصارت تتقاذفه من مكان

إلى مكان ، حتى اصطدم فى صخرةٍ حطمته وغرق ، وغرقتْ معه كتبُ الحكيم دانيال ، ولم ينج منها إلا خمسُ ورقاتٍ كانت فى جيبه .

سبح الحكيمُ دانيال فى الماء حتى وجد لَوْحا من ألواح المركب ، فأمسك به ، وجلسَ عليه ؛ وصار الموجَ يدفعهُ إلى هنا وهناك حتى انتهى به إلى الشاطئ ، فحمد الله على السّلامة وعادَ إلى بيته .

وبعد قليلٍ جاء بصندوقٍ من الخشب المَتين ، وصنع له قُفْلا ، ووضع فيه الأوراق الخمس وقال لزوجته : اعلمى أنه قد قربتْ وفاتى وأنتِ حامِل ، وربما تلِدين بعد موتى صبيًا ، فإذا ولدتِه فسميه حاسباً كريم اليدين ، وربّيه أحسن تربية ؛ فإذا كبِر وقال لك : ما خلّفَ لى أبى من الميراث ؟ فافتحى هذا الصُّندوق ، وأخرجى الورقاتِ الخمسَ التى وضعتُها فيه ، وأعطيه إياها ، فإنه إذا قرأها وفهم معناها فسيصير أعلمَ أهلِ زمانه .

ولم تمضِ إلا أيام قليلة حتى مرضَ الحكيم دانيالُ ، واشتدتْ عليه العِلة ، فماتَ : فبكاه أهلُه وأصدِقاؤه وتلاميذه .

(٢)

أَتمتْ زوجة الحكيم دانيال أشهرَ حملها ، ثم وضعت مولوداً مليحاً ، وسمته حاسباً كريم اليدين ، كما أوصاها أبوه .

وبعد أيام أحضَرت المرأةُ المنجمين ، ليحسِبُوا طالع ابنها ، فلما حسبوه قالوا لها :

أيتُها السيدة ؛ إن مولودك هذا سيطول عمرُه ، ويعيشُ أياماً كثيرة ؛ وستصادفه فى أولِ حياته شدائدُ وأهوالُ ، سينجيه اللهُ منها ، ثم يُؤْتيه بعد ذَلك علمَ الحكمةِ ، ومَنْ يُؤتَ الحكمةَ فقد أوتى خيراً كثيراً .

أرضعت الأم ابنها حولَين كاملين ، وبعد أن أتمت رضاعَه فطمتْه ، ثم تعهدته حتى بلغ خمسَ سنين ، وأرسلته إلى صانع ليعلمه صنعةً يكسبُ منها رزْقَه إذا كَبر ، فلم ينجح ، وكان كلما أرسلتْه إلى جهةٍ ليتعلَّم فيها يرجعُ إليها خائباً ؛ فتبكى ، وتندبُ حظَّها ، وتشكو إلى الناسِ همَّها .

فلما كَبر اقترحَ عليها الناسُ أن تزوجَه ، لعله يَحملُ همّ زوْجته ، ويتخذ له صنعةً يكسب منها رزْقه ورزقها ؛ فأعجبت أمَّه هذه الفكرةُ ، وخطبتْ له بنتاً ، وزوجتْه بها ؛ ومع ذلك فإنه لم يتغير ، ولم يحاولْ أن يعمل عملا يتكسبُ منه شيئاً .

وكان لهم جيرانٌ حطّابون ، مطّلعون على حالِهم ؛ فأتَوْا إلى أُمّه وقالوا لها : اشترى لابنك حماراً وحَبلا وفأساً ، وأْمُريه أن يخرجَ معنا إلى الجبل ، فنحتَطِب نحن وإياه ، وإذا عُدنا إلى المدينةِ وبعنا الحطب نقسم ثمنَه بيننا وبينكم .

حينما سمعتْ أمُّه ذلك الكلامَ من الحطابين ، فرحت فرحاً شديداً ، وخرجَتْ إلى السوق ، واشترت لابنِها حماراً وحبْلا وفأساً ، ثم أخذَتْه وتوجهتْ به إليهم ، وسلمتْهم ابنها والحمارَ والفأس والحبلَ ، وأوصتهم به خيراً ؛ فقالوا لها :

لا تحملي همّ هذا الولَد ، واللهُ يرزقنا وإياه ببركة روحِ أبيه .

خرجَ الحطابون ومعهمْ حاسب كريم اليدين إلى الجبلِ وجمعُوا الحطَب ، وحمّلوا حميرهم وحماره ، وعادُوا إلى المدينةِ ، وباعُوا الحطبَ ، واقتسموا ثمنه ، وأنفقَ منه كريم اليدين على نفسه وأمه وزوجته وحماره .

ظل كريم اليدين وزملاؤُه الحطابون يخرجونَ كل يومٍ إلى الجبلِ يحتطبون ، ثم يعودون آخر النهار ، فيبيعون ما جمعوا من الحطب ، ثم يقتسمون الثمن ؛ ومضى عليهم مـــدةٌ طويلة من الزمان وهم على تلك الحالِ .

وذاتَ يوم كانوا مشغُولين بجَمْع الحطب ، فانتشر السحابُ في السماء ، ثم لمع البرقُ ، ورعد الرعد ، وأظلمت الدُّنيا ، وهطل مطرٌ غزير ؛ فبحثوا عن مكانٍ يلجئون إليه ، ويعصِمهم من المطر ؛ وظلُّوا يبحثونَ هنا وهناك ، حتى رأَوْا مَغارةً عظيمة ، فأسرعوا إليها ، ودخلوا فيها ؛ وكانت المغارةُ من الداخل فسيحةً ، فأخذ كريمُ اليدين يتمشّى فيها ، حتى وجد حجراً جلس عليه ؛ وأخذ يَلعبُ بفَأسِه ، ويضرب بها الأرض من حَوله ، فدله حسُّ الأرضِ على أنها خاليةٌ من تحتِ الفأس ، فعرفَ أن في هذا المكانِ فجوةً مغطاةً بحجرٍ ، فأخذ يحفرُ حتى رأى بلاطةً مدوَّرةً في وسطِها حلقة .

تأكد كريم اليدين أن تحتَ هذا الحجر شيئاً ؛ ففرِحَ ، ونادى زملاءه الحطابينَ ، فحضروا إليه مُسرعين ؛ فلما رأوا تلك البلاطةَ سارعُوا إليها ، وتعاونُوا على خَلعها من مكانِها ، فخلعوها ، ثم نظروا تحتَها فوجدوا



باباً، ففتحُوا البابَ ، فرأوا تحتهُ جُبًّا مملوءًا عسلاً شَهداً .

نظر الحطابُون بعضهم إلى بعض ، وفرحُوا بهذا الرِّزق الذى ساقهُ الله إليهم على يَدَىْ كريم اليدين ، واتفقُوا على أنْ يعودُوا إلى المدينة ، ليُحضروا أوعيةً يعبِّئون فيها العسلَ ، وينقلونَه إلى المدينةِ ويبيعونه بمالٍ كثيرٍ يقتسمونه.

وخشيَةَ أنْ يعثُرَ أحدٌ غيرُهم على هذا الجبِّ ، رأوْا أن يَتخلف بعضُهم عند العسلِ لحراستِه ، ويروحَ الباقُون إلى المدينةِ لإحضارِ الأوعيةِ ؛ فقال كريم اليدين :

أنا أقعدُ هنا ، وأحرُس العسلَ حتى تَروحوا وتأتُوا بالأوعيةِ .

انقطعَ المطرُ ، وصحا الجوّ ؛ فخرَج الحطَّابون إلى المدينةِ ، وتركوا كريم اليدين علَى باب المغارةِ يحرسُ العسل .

وعاد الحطابون بالأوعية إلى كريم اليدين ، وعبّئوها عسلا ، ووضعوها على حميرِهم ، ورجعوا إلى المدينةِ ، وباعوا العسلَ ؛ وكانوا يخرجون كلَّ يومٍ إلى الُجبّ بأوعيتهم ، ويملئونها عسلا ، ثم يعودُون إلى المدينةِ ، ويبيعون العسَل ، ويَبيتُون فيها ؛ ثم يعُودون فى صَباح اليوم الثانى إلى الُجبِّ ، ويحملون معهم لحارس الُجبِّ ما يكفيه من طَعام وشراب .

وذات يومٍ قال بعضُ الحطابين لبعضٍ :

إن الذى لَقِىَ جبَّ العسل كريم اليدين وسيعود إلى المدينةِ قريباً أو بعيدًا ، ويدَّعِى أنه صاحبُ الجبِّ وأنه صاحبُ العسل ، فهو أحقُّ بثمنِه منا ، ويكتفى بأن ينزلَ لنَا عن أجرِ حمله إلى المدينة ، ويبْعهِ للناس ،

ويأخذ هوَ الباقى ، ولا مخلصَ لنا من ذلك إلا أن نُنزِله فى الُجبِّ ليعَبِّئَ لنا الأوعية ، ثم نتركه فيه ، فلا يجدُ من يخرجهُ ، فيموت ، ولا يدرى أحدٌ .

اتفق الحطّابون على هذا الأمرِ ، ثم ساروا إلى الجبِّ وهم مصمّمون على تنفيذهِ ، فلما وصلوا إليه قالوا له :

يا كريم اليدين ؛ انزلْ إلى الُجب ، وعَبِّئْ لنا العسلَ الذى بقِىَ فيه ؛

فسمع كلامهم ونزل فى الُجبِّ وعبَّأ العسل الذى بَقِى فيه ، واستخرجوا الأوعيةَ بالحبال كما كانوا يفعلون ؛ فلما انتهى قال لهم :

اسحبونى فما بقى فى الجبِّ شىء .

فلم يَرُدَّ عليهِ أحدٌ منهم ، وحمّلوا حَميرهم ، وعادُوا إلى المدينةِ ، وتركوه فى الُجب وحده يبكى ويستغيث .

أما الحطابون فإنهم عادوا إلى المدينةِ وباعوا العسلَ ، وتوجّهوا إلى أمِّ حاسب كريم اليدين وهم يبكون ، وقالوا لها :

عزاؤنا لكِ فى ابْنك !

فجزعت أشدَّ الجزع ، وقالت لهم :

ما سبب موته ؟ ! قالوا : كنا فوق الجبلِ ، فأمطرت السماء ، فأوينا إلى مغارةٍ نحتمى فيها ، فلم نشعر حتى وجدنا حمار ابنك قد هربَ فى الوادى ، فذهب يجرى خلفه ليردَّه ، وإذا بذئبٍ كبيرٍ قد خرج وافترسهُ ، وأكل الحمار ؛ وكنا فى انتظاره ، فلما تأخرتْ عودته ، خرجنا نتفقّده ، فرأيناه على هذه الحالة ، فرجعنا جزعِين .

فبكتْ أمُّه وأعولت ، ولطمتْ وجهها ، وحثَت الترابَ على رأسها ، فأحاطَ بها جيرانُها يواسونها ، ويخففُون عنها بعضَ ما بها .

وذهبَ الحطّابون ففتحوا لهم متاجرَ ، وتحسنتْ حالتُهم ، واتفقوا فيما بينهم على أن يحملوا إلى أمّ كريم اليدين ما تَحتاجُ إليه من طعامٍ وشرابٍ .

وبينما حاسِب جالس فى الُجبّ يفكر فى مصيره المظلم ، وفى كيفيّةِ الخلاص ممّا هو فيه — إذا بحشرةٍ تدِبُّ عليه فتعجّبَ من وجود هذه الحشرة ، فقام وصار يَختَبِر جُدرانَ الُجبِّ ، فعثر بمكان هَشٍّ ، وما كاد يُعمل فيه سِكينا كانتْ معه حتى فُتحتْ له كوّة نفذ له منها شىءٌ من نور ، فدبّ الأمل فى نفسه ، وعملَ جاهداً على توسيعها ، فما لبثَ إلا قليلا حتى صارت الفجوةُ واسعةً تتسِع لمروره ، فخرج منها ، وإذا به فى دِهليز طويلٍ ، فمشى فيه ، فوجدَ بنهايتِه بابا كبيرًا من حديد أسود ، وعليه قفلٌ ومفتاحٌ ، فاقترب من البابِ ، ونظر من خِلالِه ، فرأى نورًا ساطِعا ، فأيقن بالنّجاةِ ، ففتح البابَ بالمفتاح ، ونفذَ منه إلى الخَارج ، فوجد نفسه فى فضاءٍ واسعٍ ؛ فسارَ يتفقدُ المكانَ ، حتى أبصر على بُعدٍ منه شيئاً يلمع ، فظنّه بحيرة ماءٍ ، فسار متجِهاً إليها ، فإذا هى تلٌّ من الزَّبَرْجدِ الأخضر ، نُصبتْ عليه مِنصّةٌ من الذهب اللامع المرصّع بأنواعٍ مختلِفةٍ من الجواهرِ ، وحول تلك المنصّةِ نصبتْ كراسى كثيرةٌ جداً ، بعضها ذهبٌ ، وبعضها فضةٌ ؛ فتعجبَ مما رأى ، وصعِد إلى تلك المنصةِ ، وجلسَ يتأمّلُها معجباً من

أمرها ، وأمر هذه الكراسيّ التي لا يوجدُ بقربها أحد .

وبعد قليلٍ غلبه النومُ من شدة ما قاسى من التعبِ ، ولم يكد يغرَقُ في نومٍ عميق حتى انتبهَ مذعوراً على صوتِ هَرْجٍ ومَرْجٍ ، وفحيح وصفير ؛ وإذا بهذه المقاعد الكثيرة التي كانت تملأ الساحة قد اعتلتْ كل مقعدٍ منها حيةٌ عظيمةٌ ، تتوقد عيناها توقُّدَ الجَمْرِ ، فخاف خوفاً شديداً ، وارتعدَ جسمُه ، وجفَّ ريقُه ، والتفتَ حوله فرأى جميعَ الساحة وقد امتلأتْ بحياتٍ أخرى صغيرة ، فأيقن بالهلاك وأنه ما نجا من هلاكِ الجُبِّ إلا ليموتَ ميتةً أشنع وأهْوَل .

وفيما هو كذلك لا يَسْتطيعُ حراكاً ، رأى حيةً كبيرةً مثل الجملِ ، قد أقبلتْ إلى وسَط المكان ، وعلى ظهرها طبقٌ من الذهبِ ، وفوق هذا الطبق حيةٌ تضيء مثل البلور ، وَوجهُها وجهُ إنسانٍ . فلما اقتربتْ من « حاسب » سلمتْ عليه بلسانٍ فصيحٍ ، فردَّ عليها السلام بصوتٍ يرتعشُ .

ونهضتْ حيةٌ فرفعت الطبَق عن ظهْرِ الحيةِ الكبيرةِ ، ووضعتْه على أحدِ الكراسي .

فصاحت الحيّةُ التي كانت بالطبق بصوتٍ عالٍ ، فخرَّت جميعُ الحياتِ فوق كراسيها ، ودعونَ لها .

والتفتت الحيةُ إلى « حاسب » وقالت له :

لا تخفْ منّا — أيها الشابُ — فإني ملكةُ الحياتِ . ثم أشارت إلى

الحيات ليُحضرْنَ شيئاً من الطعام ، فأتيْنَ بأنواعٍ مختلفة من الفاكهةِ ، ووضعنَه أمام حاسب ؛ فقالت له الملكة :

مرحباً بك أيها الشابُّ ، ما اسمك ؟

فقال : اسمى « حاسب كريم اليدين » .

فقالت : يا حاسب ؛ كلْ من هذه الفاكهةِ ، فما عندنا طعاماً غيرَها ، ولا تخف منَّا .

ولما أكل حاسب ، ورُفع الطعامُ من أمامِه ، قالت الحيّة :

أَخْبِرْنى يا حاسب ؛ مَنْ أنتَ ؟ ومن أين أُتيتَ إلى هذا المكانِ ؟

فقص عليها حاسب جميع ما جرى له حتى تركهُ رفقاؤُه الحطابون فى الجبّ ؛ وكيف نجا منه ، وخرج من البابِ الحديدىّ إلى هذه الساحةِ ؛ ثم ختم حديثه برجائِهِ إياها أن تردّه إلى أهله ووَطنِه .

قالت الحية الملكةُ :

هَوِّنْ عليك يا حاسب ، فإنك لن ترى إلّا خيراً كثيراً ، وستُقيم معنا مدةً من الزمان ، أقصُّ عليك فيها قِصَّتى ، كما قَصصْتَ علينا قصتَك ؛ وستجد فى قِصَّتى عجائب وأهوالاً أكثر مما رأيتَ أنتَ من عجائبَ وأهوال .

قال حاسب : سمعاً وطاعة .

وظل مع ملكة الحيات يسمع منها ما أدهشه من قصص كثيرة ، كلُّها عجائب وغرائب .

وما فتئت الحية تَقُص على حاسب أعجب القَصص وأغربه؛ وكانت كلّما انتهت من قصةٍ طلب منها حاسب أن تعيده إلى أهله، فتَسْتَمْهله، وتطلبُ منه أن يمكثَ معها وقتاً آخر، لأنها ستُسمِعهُ أعجب وأغرب وأظرف مما سمع.

وخاف حاسب أن تكون وعودُ الحيةِ الكثيرةُ مبالغةً فى إمهاله حتى يسأم الطلب، وحتى يألفَ العيش عندها، فيبقَى معها، ويقضى أيامه مع هؤلاء الحيات بعيداً عن أُمّه وزوجتِهِ؛ فاكتأبت نفسُه، وأصبح لا يجد فى حديثِ الحية العذب، وفى قصَصها العجيب الغريب ما كان يجده قبلَ ذلك من عُذُوبةٍ، ولا يُحسُّ ما كان يحسُّه من شوق.

وأدركت الحية ما اعتراه من انقباضٍ، فقالت له:

ما بالُك ياحاسب قد مَللت عِشْرَتَنا؟

فبكى حاسب وقال:

والله ما بى إلاّ حَنينى لوالدَتى، فما لها أحدٌ غيرى.

فأطرقت الحية برهةً ثم قالت:

إنى ما حجَزْتُك هنا إلاّ لأنّ فى خروجك هلاكاً لى.

فقال متعجباً:

وكيف ذلك؟!!

قالت: إذا خرجت إلى أهلك، ثم دَخلْتَ الحمّام — كان فى ذلك مَوْتى؛ لأن ذلك، هو ما كُتِب لى وقُدِّر.

زاد تعجُّب حاسب ، وأقسم لها أن تُخرِجَه على ألاَّ تطأ قدمُه عتبة حمَّام جميع عمرهِ .

فقالت الحية :

أخافُ يا حاسب إذا وصلْتَ إلى بلادِك أن تنقُض العهْدَ ، وتحنثَ فى اليمين .

فأقسم لها حاسب أيمانًا مُغَلَّظَة ، وعاهَدها عهداً وثيقاً — على ألاَّ يدخل حماماً قط .

فبكت الحية وودَّعته ، وأمرت حيـةً من أتباعها أن تخْرجه على وجه الأرض .

فأخذتْه الحيةُ ، وسارت به ، حتى أخْرجَتْه إلى وجه الأرض من سطح جُبٍّ مهجور .

(٤)

وجد حاسب نفسه فى مكانٍ مهجورٍ خالٍ ، ليس به إلاَّ بعضُ الأحجارِ والأخشابِ التالفة ، فأخذ يبحثُ عن الطريق ، ويتتبَّع المعالِمَ حتى عثر عليه .

فانحدرَ نحوِ المدينةِ ، فدخلها مع غروبِ الشمس ؛ واتجه نحو منزِلِه ، يدفعهُ الفرحُ لملاقاةِ أهْله ، ويرده الخوفُ خشية أن يكونوا قد ماتوا .

وطرق البابَ ، ففتحتْه أُمُّه ، وما أبصرته حتى صَكَّتْ وجهها ، وصرخَتْ صرخةً دَوَّت ، ثم خرَّت مغشياً عليها من هول المفاجأة ؛ فتلقَّفها ولدُها بين ذِراعيه ، وهو يقبِّلها ، وأخذَ يمسحُ رأسها حتى أفاقت ، فنظرتْ إليه وهى لا تكاد تصدِّقُ أنه ابنُها ، فلما استَيْقنَتْه طوقتْهُ بذراعيها ، وانهالت عليه لَثماً وتقبيلاً ، وهى تبكى من شدة فرَحها .

وأتت زوجته تستطلع الخبر ، فوجدت حاسباً أمامها ، فلم تستطع تصديق عينيها حتى سمعت صوته ، ومناداته لأُمِّه ، فكان سرُورُها لا يعدِلهِ إلاَّ سرور أُمِّه .

ودخل حاسب داره ، وبعد أن استراح ، وتناول ما أُعِدَّ له من طعامٍ ، سأل أُمَّه عن الحطَّابين الذين كانوا يحتطبون معه فى الجبلِ .

فحدثته أُمُّه حديثهم ، وما كان من شأنهم معها حينما عادُوا من الجبل ، وأخبروها أن الذئب افترس حاسباً ، ووصفت له ما صاروا عليه من غِنى ، ولم تنكر ما قدموه لها من مال ؛ ثم سألته سر غيبته .

فقصَّ حاسب عليها هى وزوجته بعضَ قصته ، ثم قال لأمه :

اذهبِي غَداً إلى الحطابين ، وقولى لهم : لقد حضر حاسب من سفره ، فاحضُروا ، وسلِّموا عليه .

وفى غد ، ذهبت أمُّه فأتت بيوت الحطابين ، وأخبرتْهم أن حاسباً عاد من سفره .

فدهِش الحطابون ، ووَجفت قلوبهم ، وتشككوا فى الأمر ، فأكدته لهم .

وعقد الحطابون (التّجار) اجتماعاً بينهم ، ينظرون فيه أمر هذا الخطب الجَلَل الذى سيحُل بهم ، ثم استدعوا بعضَ أصدقائهم يستشيرونهم .

فأشار عليهم الأصدقاء ، بعد أن عرفوا ما كان منهم لحاسب، أن يُعطيَه كلُّ واحد منهم نصفَ ماله .

وبكَّرَ الحطابون إلى منزل حاسب ، حاملين الهدايا والأموال ؛ فسلَّموا عليه ، وأعطَوْهُ ما جاءوا به ، وَقالوا له : هذا من بعض إحسانك ، ونحن بين يديك .

فقبِل حاسب ما أتوه به ، وقال لهم :

لقد سامحتُكم نفسى ، وما حصل لى كان مقدورًا علىّ .

فقالوا له :

هيَّا بنا إلى حمَّام السُّوق ، وارتد هذه الحُلة الجميلة ، التى أحضَرناها لكَ .

فقال لهم :

لقد أقسمتُ ألَّا أدخل الحمَّام ما دمتُ حيًّا .

فقالوا : إذن ، هيّا نُضيفُك فى منازِلنا .

فقبل حاسب منهم ذلك .

وأضافه كلُّ واحد منهم يوما ، وأوْلَم له وليمة كبيرة ، حضرها الأصدقاء والأقارب .

وأصبح حاسب من كبار التجار بالمدينة ، يؤمُّه النـاس جميعاً لصدْقه وأمانته .

وفي يوم عطلة المتاجر ، خرج حاسب يرتاضُ في المدينة ، فجاز بحمّام يجلس صاحبه على بابه ، وكان صاحب الحمام يعرف حاسباً ، فما كاد يلمحَه حتى أسرع إليه مسلِّماً عليه ، ودعاهُ إلى دخول الحمام ، فاعتذر حاسب ، فأقسم عليه الحمامىّ أن يدخل .

فقال له حاسب : لقد أقسمتُ يميناً ألا أدخلَ الحمام طيلة حياتى

فما كان من الحمامىّ إلا أن صاح مُقْسِما أَيمانًا مغلَّظة أن لا بدّ من دخول الحمام ، وكان الرجلُ إذا حَنث فى يمينه فرّقَ القاضى بينه و بين نسائه .

فاجتمع الناسُ وعمال الحمام على حاسب يُلِحّون عليه أن يدخل ، وهو يمتنع .

ويقولون له : أتريد خراب بيت الرجل ؟ ! !

والحمامىّ يتوسلُ إليه أن يدخل بعد أن صدرت منه هذه الأَيمان .

ثم تكاثر عليه الجمع فأدخلوه كرهاً .

وما كادَ يخلع عنه العمال ملابسه ، ويصبُّون على رأسه المـاء ، حتى تقدم منه عدد من الرجال ، وقالوا له :

قم أيها الرجل ، فأنت طِلْبة السلطان .

وأرسلوا واحداً منهم إلى نائب السلطان ، الذى ما لبث أن حضر ومعه عدد كبير من الرجال .

وتقدم الحاكم لحيا حاسباً ، وقدم له حصاناً ليركبه فركبه ، ثم ساروا به إلى قصر الحاكم ، بعد أن نقد الحاكم الحمَّامىَّ مائة دينار .

واستُقْبِل حاسب فى قصر الحاكم استقبالاً رائعاً ، وقدمت له مائدةٌ عظيمة ، وخلع عليه الحاكم خلعة فاخرة ؛ حدث ذلك كلُّه وهو مشدوه مما يرى .

ثم قال له الحاكم :

اعلم أن الله قد مَنَّ علينا بك ، ورحِمَنا بمجيئك ، فإن السلطانَ أشرف على الموت من الجُذامِ الذى به ،وقد دلَّت عندنا الكتب أنَّ حياته على يديك .

فازداد عجب حاسب من هذه الأمور المبهمة ، وهذا الكلام الغامض .

واصطحب الحاكم حاسباً ، وتوجّها فى عسكر كبير إلى مدينة الملك ، وقصدُوا من فورهم إلى قصره ، واجتازوا أبوابَ القصر السبعة .

وأُذِن للحاكم ولحاسب بالدخول إلى حجرة الملك فدخلا .

فوجد حاسب الملك راقداً على سرير ، ووجهه يختفى تحت الأربطة ، وهو يئِن ويتوجع ، وقد جلس بجانبه وزيره

ونهض الوزيرُ لدى دخول حاسب مرحّباً به ، وأجلسه بجانبه ، وقال له : نحن جميعاً فى خدمتك ، وما تطلبه يصير إليك ، ولوطلبت نصف الملك أعطيناك إياه ، لأن شفاء الملك على يديك .

ثم أخذه إلى سرير الملك ، وكشف له عن وجهه ، فرآه حاسب ذابلا مُتجعِّدًا مُقرَّحا .

فتنهد حاسب رائياً له ، ومُشفقاً على نفسه من هذه الأحاجى والألغاز .

ثم قال :

نعم إنى ابنُ الحكيم دانيال ، لكننى لا أعرفُ شيئاً من العلم ، وبُودّى لو أعرف فأداوىَ الملك .

فقال الوزير :

لا فائدة من إطالةِ الكلام ، فلو جمعنا حكماء المشرق والمغرب لعجزوا عن مداوَاة الملك ، إلّا أنت ، فإنك مستطيع أن تداويَه .

حاسب : كيفَ أداويه وأنا لا أعرفُ داءه ولا دواءه ؟ ! !

الوزير : إن دواء الملك عندك .

حاسب : لو كنتُ أعرفُ دواءه ، ما ترددتُ فى مداواته .

الوزير : أنت تعرف دواءه ، فإن دواءه ملكة الحيات ، وأنت تعرفُ مكانها ، ورأيتها ، وكنتَ عندها .

وهنا ، انجلى الأمرُ ووضحت الحقيقة ، وعرف حاسب صدْق قول الحية ، وخشيتها من دخوله الحمّام ، فندِم ولاتَ ساعة مندم ! ! !

ثم قال بصوت متهدج ، متقطع النبرات :

ماذا ؟ ! ! ملكةُ الحيات ؟ ! ! أنا لا أعرفها ، وما سمعت بهذا الاسم قط .

قال الوزير :

لا تنكر معرفتَها ، فإن عندى دليلا على أنك تعرِفها ، وأقمت عندها سنتين .

قال حاسب :

أنا لا أعرفها ، وما رأيتُها ، وما سمعت بها إلا الآن .

فأحضر الوزير كتاباً وفتحه ، وجلس يقرأ فيه ويحسب ، ثم قال :

إن ملكة الحيات تجتمعُ برجل ، ويمكثُ عندها سنتين ، ويرجع من عندها ، ويخرج على وجه الأرض ، فإذا دخل الحمّام اسودّ بطنه .

وكان حاسب يسمع كلام الوزير ، وهو يرتجف ، ثم قال له الوزير :

اكشف عن بطنك وانظر إليه .

فنظرَ حاسب إلى بطنِه فرآه أسود .

فقال : إن بطني كذلك من يوم ولادتى .

فهزَّ الوزير رأسه غير مصدِّق ، وقال : لقد كنتُ موكِّلا بكلِّ حمامٍ نفرا من رجالى ، حتى إذا ما رَأَوْا أحداً اسْوَدَّ بطنُه — سارعوا إلى إبلاغِي خبَرَه من غير أن يَدَعوه يُفلتُ من أيديِهم ، فلما حضرتَ أنت ونظروا إلى بطنك فوجدوه قد اسودَّ — أبلغونى على عَجَل ، وليس عليك الآن إلاَّ أن تُرِيَنا المكان الذى خرجت منه من عند ملكة الحيات ، وسنُخْلى سبيلَك بعد ذلك .

أطرقَ حاسب ، وقد شمَلَهُ الحزنُ ، وعمَّه النـدمُ ، وجَعَل يفكِّرُ تفكيراً عميقاً فى هذا الموقفِ المؤلم الذى اضطره إلى نكثِ الأَيْمان ، ونقْض العُهود .

وتوافدَ الأُمراء والوزراء ، وكبارُ رجال الدولةِ يلاينُونَهُ ، ويلاطفُونه .



ويستعطفونه، ويتوسّلون إليه؛ أن يرشدهم إلى مكان ملكة الحيات، وكانوا كلّما أمعنوا هم فى ذلك أمعنَ هو فى الإنكار، ويؤكد لهم أنه ما رآها ولا يعرفُ عنها شيئاً.

فلما يئسُوا منه، وتأكّدوا أنه مُصر على الإنكار، طلبَ الوزير الجَلاَّدَ، وأمرهُ بنزع ثيابِ حاسب وَجَلده جَلداً مُوجِعاً، وأن يظلَّ بجلده حتى يعترف.

فنفذ الجلادُ ما أمر به، وأخذَ حاسب يتلوّى تحت السياطِ حتى أشرف على الموت، وعلى الرغم من أنه أوشكت نفسُه على التلف — فإنه بقى على إنكاره، ولم يبحْ بشىء من سرِّه.

فلما رأوه قد قاربَ الموت — أمر الوزير الجلاَّدَ بالكفِّ عنه، وحملهُ الخدم، وأخذُوا يضمِّدُونله جراحَه، حتى أفاق من غَشْية أصابَته.

فلما أفاق قال له الوزيرُ:

إن لدينا دليلًا على أنك تعرف مكان ملكة الحيات، فلماذاَ تنكرُه؟

إنّا لا نطلب منكَ إلا أنْ ترِيَنا المكان الذى خرجْت منهُ، ثم تبتعد عنا ولك مقابل ذلك كلُّ ما تَطلب.

وأمر الوزير، فأتوا لحاسب بحلةٍ مزركشَة بالذهب والجواهر، وأخذ جَميعُهم يلاطفونه، ويُعنُونه، وهو صامتٌ لا ينطقُ، فعاوَدوا الشدّةَ عليه، فضعُفَتْ نفسُه بعض الضعفِ، وقال:

سأُريكم المكانَ الذى خرجتُ منه، ولا تسألونى شيئاً آخر بعد هذا.

فقالوا : نعمْ هذا الذى نبغيه منك .

فركبُوا وركبَ حاسبٍ ، وتوجَّهوا إلى المكان الذى خرج منه حاسب من عند ملكة الحيات ، وهو يَعْلَمُ أن معرفةَ هذا المكانِ لن تُجْديهم شيئاً ، ولن يستطيعَ أحدٌ الْمُروقَ منه فيعودُوا بخُفَّىْ حُنَيْن .

فلما وصلوا أراهم حاسب البئر التى خرج منها ، وانتظر يرى خيبةَ أَملِهم ، فتقدمَ الوزير من البئر ، وكان يعلم كل فنون السِّحر والروحانية ، فأطلق البخور وجلس يقرأُ التعاويذ ، ويتلو الرُّقى ، وينفثُ ويُهمهم ؛ وكلما فرغ بخور أطلق غيره ، وعاود القراءةَ ؛ ثم قال :

أُخرجى يا ملكة الحيات .

وما كاد ينتهى من كلامه حتى زُلزِل المكان زلزالاً شديداً ، وارتجت البئرُ رجًّا عنيفاً ، وغاضَ ماؤها ، وانفتحَ بها بابٌ ، وانطلق منه صوتٌ عظيم كأنه الرعْد ، فوجف الحاضرون وذُعروا ، وظنُّوا أن البئر قد انهدمت ، فدخل بعضهم فى بعضٍ ، ووقع بعضُهم مغشيًّا عليه مما به من الخوف والرُّعبِ ؛ إلا الوزير فإنه لم يَكُف عن القراءة والترتيل .

وبعد قليل تثاءبَ البئرُ عن حيةٍ عظيمةٍ تخرجُ منه ، تقدحُ عيناها شرَراً ، وينفث فوها جمراً ، وعلى ظهرها طبق من الذهب الأحمرِ المرصَّع بالدرِّ والجوهر ، عليه حيةٌ تضىء ، ووجهُها وجه إنسانٍ هى ملكة الحيات .

ودارت ملكة الحياتِ بعيْنيها هنا وهناك ، حتى وقعت على حاسب ، فقالت :

أينَ العهدُ الذى عاهدتنى عليه ؟! أين اليمين المغلَّظةُ التى أقسمتها لى أنك لا تدخل الحمَّامَ ؟!

فتقدم منها حاسب وهو يبكى ، ولا يستطيعُ رؤية طريقه خلال سحاباتِ دموعه ، وأخذ يعتذرُ إليها ، ويكشف لها عن بعض جسمه ليُرِيَها شيئاً مما أصابه من كثرة الضرب بالسياط .

فقالت الحيَّةُ وقد سالتْ دموعُها :

لا تنفع حيلةٌ فيما قدَّر الله ، فلا رادَّ لقضائه ، وقد جعل الله آخر عمرى على يديك ، وأن أقتل أنا ويشفى الملِك .

وبكت الحيةُ بكاء شديداً وحاسب يبكى لبكائها .

فتقدم الوزيرُ من الحية ، ومد يده ليمسكها ؛ فقالت له :

إليك عنى أيها الرجل ، لا تمدّ يدك علىَّ ، وإلا نفختُ عليك نفخةً صيَّرتك رماداً .

ثم صاحت بحاسب ، وقالت له :

تعالَ عندى وخذنى بيدِك ، وضعنى فى هذا الوعاء الذى معكُم ، واحمله عَلَى رأسِك ، فموتى على يدك مقدور منذ الأزل ، ولا حيلةَ لك فى دفعه .

فأخذها حاسب ، وحملَها على رأسه ، وعادت البئر إلى ما كانتْ عليه .

وقفلَ الجميع عائدِين ، وحاسب يحملُ الحية ، فهمست فى أذْنه قائلة :

أصغ إلىَّ يا حاسب . حينما نَصلُ إلى منزل الوزير سيقولُ لك : اذْبح

ملكةَ الحياتِ ، وَقسَّمها ثلاث قِطعٍ ؛ فامتَنع عن ذبحي ،وقل له : إنى لا أَعرفُ الذبْح ، كى يذبَحَنى هو فإذا ما ذبَحنى وقطَّعنى ، فسيأتيه رسولٌ فى هذا الوقتِ من عِندالملك يستدعيه على عجَل، فيضَع اللحْم فى قِدْرٍ ويضَع القدرعلى النار ، ثم يقول لك . رَاقِب هذا اللَّحم حتى أعود ، فإذا ما غات القِدْر ، طفَت على وجهها رغوةٌ ، فا كشُطْها ، وضعها فى زجاجةٍ ، وانتظرْ حتى تبرد ، ثم اشرَبها ، فإنك إن شربتَها يسبغ الله عليك صحةً وعافية .

وإذا استمرت القدر فى الغليان خرجت الرغوة الثانية ، فا كشطها أيضاً ،وضعها فى زجاجةٍ أخرى حتى أشربَها أنا لمرض الشيخُوخة التى لحقَنى ، وسيرتَدَّ إلىَّ بعض شَبابى .

سيقول لك كلَّ هذا ، ويعطيك الزجاجَتَين وينصرف ، ولكن احذر أن تنفذ قوله ، و نفذ ما أقوله لك .

قم أنتَ عَلَى القِدر ، وحينَما تخرجُ الرغوةُ الأولى خُذها وضعها فى الزجاجة ، وإياكَ أن تشربها ، فإنك إن شربتها لحقكَ ضررٌ عظيم ، وما طلبَ الوزير منكَ شُربها إلا ليتخَلصَ منك ؛ وحينَما تخرج الرغوةُ الثانية خذها وضعها فى وِعاء ، وأخفها عن عينَيه ، ثم احفظْها حتى تشربها أنت ؛ فإذا رجع الوزير من عند الملك وطلب منك الزجاجةَ الثانية ، فأعطه الأولى ، ثم اشربْ أنت الثانية ، وإنكَ إن فعلتَ فسيتفجر العلمُ من جوانبك ، وتنطق الحكمةُ من نواحيك ، ثم أَخْرِج اللَّحم وضَعْه فى

وعاء، وقدمه للملك ليأكله، ويأتى عليه؛ وسيغدُو صحيحا لا يَشكُو ألما، ولا يُحِسُّ مرضا، وختمت الحيةُ كلامها بقولها :

حافظ على هذه النصيحة، واعمل بها ياحاسب.

فقال لها حاسب، وهو يبكى متأثرا لإخلاصها :

إنى أعِدُكِ بذلك شاكرا لكِ كلَّ أفضالك.

فلما وصلوا إلى بيت الوزير، وتفرقت الجنود، قال الوزير لح اذبح ملكة الحيات.

قال حاسب : إنى لا أعرفُ الذبح.

أسرع الوزير إلى السكين وشحذها، وأخذ ملكة الحيّات و وحاسب يبكى مُرّ البكاء.

فقال له الوزير وهو يضحك :

يا مَعتوه، أتبكى من أجل ذَبح حية؟!!

ثم قطّعها ثلاث قطع، ووضعها فى قِدرٍ على النار؛ لينضَج ا وقبل أنْ تغلى القدرُ أتى رسول الملك يستدْعيهِ على عجلٍ، فأوصى بما ذكرته له الحية من قبل.

ولما خرج الوزير، فعل حاسب كما أمَرَته.

وعاد الوزير فسأل حاسبا عن الزجاجتَين، فقال له :

لقد شربتُ الآنَ الزجاجة الأولى كما أوْصيتَنى.

وأراه الزجاجة الثانية فارغةَ على أنها الأولى.

فنظر الوزير إليه مُرتابا فى أمره، وقال: مالكَ؟! لا يَبدُو عليك شىء!

فقال حاسب:

إنى أُحِسُّ أن جِسْمى يشتَعِل نارا.

فسُر الوزير فى نَفْسه، وقال لحاسب:

إذَن، أعْطِنى الزجاجَة الثانية حتى أشربها.

فأعطاه حاسب الزجاجَة الأولى التى أوصتْه الحية أن يُعطيه إياها، فشربها الوزير من فَورِه، وما كاد يأتى على آخرها، حتى سقطت الزجاجة من يدِه التى ارتعشَتْ وتخاذلَتْ، وارتمَتْ إلى جانبه.

فنظر حاسب إليه، فوجده قد تورمَ جسمُه وانتفخ، ثم سقطَ ميتا كأنه سُقِى سُما زُعافا، وصدق فيه قول صاحب المثل: (من حفَر بئرا لأخيه وقع فيها).

فارتعبَ حاسب لذلك أشدَّ الارتعاب، وارتاعَ أقسى ارتياع، وأدركَ عظم المصير المؤلم الذى أرادَه له الوزير، وأنقذته ملكة الحيات منه.

خاف حاسب، وأرادَ أن يسكُبَ ما فى الوعاء الذى احتَفظ به لنَفْسه، ولكنه عاد فعدل وهو يقول:

لو كانت الرغوةُ الثانية مُضِرة، ما اختارَها الوزير لنَفسه، وما أوصتنى الحية أن أَحتفظ بها لى من دون الوزير. لقد سلمت أمرى إلى الله، وما قدرَه الله يَكون.

ثم رفع الإناء فشربه. وأخذ قِدْرَ اللحم وخرج إلى قَصْر الملك.

تفجر العلم من جوانب حاسب، ونطقت الحكمة من نواحيه، وفاض قلبُه نورا من العِرْفان؛ ففرح لذلك أيَّ فرح.

رفع رأسهُ إلى السماء، فرأى الأفلاكَ فى مسارها، وشاهد النجومَ فى مدارِها، فعرف سير الكواكب وحسابها، وكُسوفها وخسوفها، وقربها وبعدَها، ومطالِعها ومغاربها، وما تَجرى به على الإنسان من سعْدٍ ونَحس.

ونَظر إلى الأرض، فعرف ما فى جَوْفها من المعادن، وما على ظهرها من النباتات والأشجار، وعلم ما لها من الخواصّ والمنَافع، واستَنْبَط من ذلك أشياء كَثيرة أفادته فى الطب والكيمياء، وعرف علمَ الهندسة والنجوم والسيمياء.

فحمِدَ الله وشكرَ له نعمته.

ولما مثل حاسب بين يدَىِ الملك، نَعىَ إليه وزيرَه، فبُهِت الملك، وتملكهُ الحزنُ العميقُ لموت وزيرِه، وخشى أن يكونَ قد مَسّه أحدٌ بسوء، وقال لحاسب:

كيف مات؟! لقد كان عِندِى الآن، وهو على خيرِ ما يكون صحةً وعافية، وذهب ليأْتيَنى باللَّحم، فما سببُ موته؟! وأىّ عارضٍ عرض له؟!

فكشف له حاسب الحقيقة ، وقال له :

لا تحملْ هَمًّا أيها الملكُ ، فإنى أُداويك فى أقصر وقتٍ ، وأُنجيك من هذه العِلّةِ المِلحّة التى لازَمتْك زمناً طويلا .

فسُرّ الملك لقُرب شِفائه ، ودعا حاسبا يفعَلُ مايُريد .

فأخذ حاسب قطعةً من لحم ملكة الحيات ، وأطعَمَها الملك ، ثم طلب إليه أنْ ينَام ، وبعد أن نال الملكُ قسطاً وافراً من النَّوم ، أيقظه حاسب وسقاه شرابا ، ثم أنَامه ثانياً .

وفى اليوم الثانى ، والثالث ، فعل معه كما فعل فى اليوم الأول ، حتى انتهت قطعُ اللحم الثلاث .

وفى صباح اليوم الرابع ، استَيْقَظ الملك من نومه نشيطاً مُعافىً لا يشعُر بشىء من الأمراض والأوْجاع ، فالتأمت جُروحه ، ونفَضت قشورها ، فأدْخله حاسب الحمام ، وغسل له جسمه ، فصار جلدُه نظيفاً سليما .

وخرج الملكُ فجلس على عرشه الخالى منذ سنين ، مرتدياً ملابسه الثمينة المزركَشة التى حرم ارتداءها وقتاً طويلا .

ودعا حاسباً فأَجلسه بجانبه ، ثم أذن للأُمراء والوزَراء وكبارِ رجال الدولةِ بالدخول ، فدخلوا عليه وهنَّأوه بالعافية .

وأعلنوا ذلك فى المدينةِ ، فدُقّت الطبولُ ، وزُيِّنت المدينة فرحاً لسلامةِ الملك .

وقال الملك لأربابِ دولته :

يا معشرَ الأمراء ، والوزراء ، والكبراء .

هذا حاسبُ كريمُ اليدين ، الذى شفانى من مَرَضِى . اعلموا أنى قد جعلتُهُ وزيراً أعظم ، فمن أحبه فقد أحبنى ، ومن أكْرمه فقد أكْرمنى ، ومن أطاعه فقد أطاعنِى .

فقال جميعهم : سمعاً وطاعة .

ثم نهضوا فقبلوا يد حاسب ، وسلمُوا عليه وهنَّأوه .

وخلع عليه الملكُ خلعاً ثمينةً ، وأهدى إليه الجوارى والمماليك .

وأمر فحُمِلتْ إلى منزله الذى خُصصَ له التحفُ الثمينة ، والأثاثُ الفاخر ، والرياش الثمينة .

وقصد حاسب إلى منزله الجديد الفخم ، يَحُفُّ به كبارُ الرجال ، وتحيط به صفوفُ الجنود .

وحضرت أُمهُ فرحةً فقبلتْه وهنأته ، واستقبلتْه زوجتُه ، وقد استخفَّها الفرح والسرور .

(٦)

ونال حاسب كريم اليدين أمنيَّةَ أبيه وأُمه فى أنْ يكون أحكمَ أهل زمانه .

وانتشر صيته وشاعتْ حكمتهُ ، واشتهر باستبْحَاره فى كلِّ العلوم .

وذات يوم قال لوالدته :

يا أمي ، لقد كانَ أبي دانيالُ عالمًا فاضلا ، فأين ماخلَّفه من الكُتب ؟

فأحضرتْ أمُّه الصندوق وبه الخمسُ الورقات ، وأعطته إياها .

فقال : هذه ورقاتٌ من كتابٍ ، فأينَ بقيتُه ؟

فردتْ عليه ما كان من ضياع الكتب ، وكيف لم تنجُ إلا هذه الورقات الخمس التي أوصى والده بإعطائِه إياها عند ما يسألُ عما خلّفه له أبوه من تُراثٍ علميّ .

فقرأها حاسب ، فوجد بها ما يفعله الذى سيكون على يديه خروج ملكة الحيات .

فتعجب حاسب من ذلك أشدَّ العجبِ ، وعلم أن والده كان يعلمُ أن ابنَه هو الذى سيكون على يديه هذا الأمر ، فأراد تَبصيره ، ولكنه لم يُوَصِّ والدته بإعطائه إياها إلا بعد أن يسألَ ولدهُ عن كتبِ أبيه ، ويرغبَ فى النهل من حكمتها ، وبذلك يكونُ أهلا لأن يكونَ أحكم أهل زمانه .

وعلم أنه قد جاء متأخراً فى طلبه ، ولولا طيبُ ملكة الحيات ، وإخلاصُها له — لفات عليه هذا الأمر .

وعاش حاسب بقية حياته سعيداً هانئا ، لا تغرُب عن باله ملكةُ الحيات ، التى خدمتْه حيةً وميتةً .



على نور الدين ومريم الزنارية

(١)

كانَ فى الزمن الأول تاجرٌ بمصر اسْمه تاجُ الدين ، عُرِف بكثرة الأموالِ ، وسَعة التجارة ، والصدقِ والوفاء والأمانة ، وكان كثير الارتحالِ فى طلبِ المال ، لاَ يهمُّهُ صُعوبةُ البَر ، ولا خُطورةُ البحرِ ؛ وقاسى فى أسفارِه من الأهْوالِ ما تشيبُ له الأطفالُ ؛ وهُو إلى هذا حَسنُ المقال ، جميلُ القَوام ، رَقيقُ العواطِف ، محببٌ إلى الناسِ .

وكانَ ابنُه عَلىٌّ نورُ الدين جميلَ الهيئةِ ، بَديعَ الخلقةِ ، ذا جبينٍ أزْهر ، وخَدٍّ أحمر ، وعذارٍ أخضر ، وطرفٍ مكحول ، وقوامٍ ممشوق .

جَلسَ فى دكان أبيه ذاتَ يوم ، فجاءه أبناءُ التجارِ ، وعَرضُوا عليه أن يذهبَ معهم إلى بُستانٍ للنزهَةِ ، فقال لهم : حتّى يأذَنَ لِى أبى .

فلما أذن له أبوه ، وأعطاه شيئاً من المالِ ينفقُه — ركبوا جميعُهم دَوابَّهم ، وساقُوها إلى بُستانٍ مشيَّدِ الأركان ، رفيع البُنْيان ، له بابٌ واسعٌ كأنه الإيوان ، وفيه صُنُوف من الأعنابِ وغيرِ الأعنابِ ، من كلِّ ما لَذّ وطاب ، وبِهِ عريشة جلس فيها بوّابهُ رضوان .

وبعد أن طافوا بأشجاره ، ومتعوا أنظارهم بثمارِه وأزهارِه — جلسُوا فى إيوانِه ، وأجلسُوا نورَ الدين فى وَسطِهِ ، على نِطع من أديمٍ مُزَرْكش ، مُتكئاً على مخدةٍ لينَة ، وناولوه مِروحةً من ريش النعام ، ونزعوا ما عَلَيهم من ثيابٍ وعمائم ، وأخذوا يتحادثونَ فرحين ، وبعدَ مدةٍ أقبلَ عليهم عبدٌ أسودُ يحملُ مائدةً ، عليها أطعمةٌ متنوّعة ، من ضَأنٍ ودَجاجٍ وسمكٍ وحمام ، وكانَ أحدُهم قدْ وصى بَيتَه أن يحضرَ لهم تلك المائدةَ ، فأكلوا جميعُهم حتى شبعوا ، ثم غسلوا أيديَهم ورجعوا إلى حديثِهم ، ثم جاءهُم خادمُ البستان يحملُ سَلة من الوردِ فوزّعهُ عليْهم .

فلما كانَ الوردُ فى أيديهم وضعَ أمامَهم سُفرةً مزركشةً بالذهب الأحمر وعليها شراب ، ثم ملأ الكؤوس ، ودَارَبها على الجلوس ، حتى وصَل إلى علىّ نور الدين ، فامتنعَ مُعتذراً وقال : هذه خمرٌ ، كلُّها إثمٌ وَوِزْر ، ولم أذُقْها أبداً ، ولاَ أُحبُّ أنْ أُغْضب بِشربها ربِّى .

فقال البُستانى : إن كان فيها إثمٌ فإنّ اللهَ غفورٌ رحيم ، يغفر الذنب

وَيقبَلُ التوب ، وقد قال الشاعر :

كنْ كيفَ شئتَ فإنَّ الله ذو كَرَمٍ
وما عليكَ إذا أذنبْت من باسِ
إلا اثنتين فـــلا تقربْهما أبدًا
الشِّرْكُ باللهِ والإضرارُ بالنَّـــاسِ

فقال نور الدين : إنه غافرُ الذنب وقابل التَّوب وشديد العقاب ، وكلّ امرئٍ بما كسبَ رهين ، وقد أمرنا الله باجْتناب كل إثم وعُدوان . فتقدم إليه أحد الأبناء وأقسمَ عليه أن يشرب كأسه ، وحلف آخَرُ أن يشربها ، وجعل آخرُ يُنفره من مُخَالفةِ إخْوانه ، وجعلَ آخرُ يشوِّهُ لهُ تعكيرَ صَفوِ مجلِسهم ، فضعفت عزيمةُ نور الدين ، أمام هذه الحملة المنيفة الإجماعيةِ من إخوانه ، وأخذ جَرعةً من الكأسِ ، ثم بصقها قائلًا : إنها مُرةٌ ، ولا صبر لى على المُرّ . فوضع البستانى فى كأس نور الدين قطعةً من السكر وقال :

اشرب الآن فقد ضاعت مرارتها ، وستجدها حُلوةً لذيذةً . فشربها مُكرهًا ، فكان لإخوانه من هذه الكأس خَيرُ مُعينٍ لهم على أن سَقوهُ أخرى وأخرى ، حتى سقوهُ عشر كؤوس ، فلعبت برأسه ، وثقلَ لسانه ، واستعْجَم كلامه ، ولكنه استطاع أن يقول : يا إخوانى : ما أجمل مَجْلسكم ! وما أعذب حديثكم ! ولكن ينقُصه صبيةٌ تغنى ، فلا فائدة من شرابٍ لا يصْحبه غِناء . فركب صاحب البستان بغلةً وغابَ

ساعة ، ثم رجع إليهم ومعه صبية كالفضّة النقية ، والغزال فى البرية ، ذات وجهٍ يُخجِلُ الشمس المضية ، وعيون ساحرةٍ بابلية ، وحواجبَ كالقِسىِّ المحنية ، وخدودٍ وردية ، وأسنان لؤلؤية ، وقال البُستانى لتلك الصبية : ما جئنا بك إلا لتطربى وتُنادمى نور الدين ، فإنه لم يَزرْنا إلا هذه المرة . فقالت : ليتك أخبرتنى وأنت عندى ، حتى أُحْضر معى أدوات الطرب ، فقال : استريحى أنتِ هُنا وحمّلينى أمارةً أُحضرُ بها ما تريدين ، فقالت : خُذ معك منديلى هـذا أَمارة ، لتُحْضرَ به كيساً من حرير أخضر ، فى مكان « كذا » من منزلى . فلما جاءها به أخرجت اثنتين وثلاثين قطعةً من الخشب . ثم جعلتْ تضمُّ بعضها إلى بعضٍ على نحوٍ خاصّ تعرفه ، وأنشأت منها عودًا جميلاً ، وانحنتْ عليه انحناءَ الأمّ على ولدها ، و[illegible]ـلت تغمز[illegible]ـه بأناملها ، فيملأُ الأسماع عذبَ الألحان ، فلما سمعَ ذلك نور الدين أحبَّ الصبيَّة ، وظهر ذلك الحبُّ فى نظرتهِ إليها وكذلك أحبتهُ الصبية ، لأنه أجملُ الحاضرين ، وأعْذبهم قولًا ، وأَرقّهم عاطفةً ، وأشرفهم شعورًا . وكان طربُ نور الدين عظيمًا لحسنِ شِعرِها ، وعذوبة لفظها ، وطلاقَة لسانها ، وشهىِّ أَلحانها ، فهام بحبّها ، وانتهى المجلس ، ونهض نور الدين قائماً .

فقالت : إلى أين يا سيدى ؟ فقال : إلى بيت والدى . وعبثًا حاول إخوانه أبناء التجار أن يُبقوهُ لينام معهم ؛ فلما دخل على أمّه فرحت بقدومه ، وقالت :

لقد طالتْ غيبتك ، وقلقْنا من أجلك ، ثم همتْ بتقبيلهِ فشمتْ رائحة الخمر فى فمه ، فقالتْ : أبعدَ صلاتك وعبادتك تشربُ الخمرَ ، وتعصى من له الخلقُ والأمرُ ، وإليه المرجعُ والمصير ؟ ! فلم ينطق بكلمة وذهبَ إلى فراشه ونام .

وحضرَ أبوه فسأل عنه وعما جعله يلجأ إلى فراشه وينام .

فقالت أُمه : لعلّ النزهة أتعبتْه فمالَ إلى الراحة ، وربما يشكو ألما فى رأسه . فتقدم إليه أبوه ليعرف حالته، فشمّ هو أيضاً رائحة الخمر مُنبعثةً من فمه ، فغضبَ وقال :

أبلغ بك السفهُ إلى حدّ أن تشرب الخمر ، فتُخالف والدك وتعصى ربك ؟ !

وكان نور الدين غارقاً فى سكره ، لا يدرى ما يفعله ، فلطم وجهَ أبيه ، فأصابَ بضربته عينه ، فوقع مغشيًّا عليه ، ولما أفاق من غشيته حلف أن يقطع فى الصباح يد ابنه اليمنى ، التى لطم بها وجه أبيه ، فضاق صدرُ أُمه وخافتْ على ابنها ، ولم تزل تخففُ من غضبه حتى نام .

وفى منتصفِ هـذه الليلة المقمرة استيقظَ نور الدين وقدْ أفاق من سكْره ، فقالتْ له أمه : ما هذا المنكرُ الذى فعلته ؟

فقال : وماذا ؟

فقالتْ : لقدْ ضربتَ أباك على عينهِ ، وحلف أن يقطع فى الصباحِ يدك اليمنى .

فقال فى حزنٍ أليم : لم أكُنْ أدرى ما فعلت !

فأشارتْ عليه أن يخرج فى هذا الوقتِ ويهرب عند أحد أصحابه حتى يأتى الله بالفرج ، وتمهدَ له سبيل النجاة ، ولعلّ الله يغيّر حالا بعد حال ، وناولته كيساً به مائةُ دينار يستعين بها ، وأمرته أن يتصلَ بها سرًّا ، حتى يدومَ عطفها عليه ، وإمدادُها إياه بالمال الذى يحتاجُ إليه ، إلى أن يجعل الله لهم من هذا الضيق مخرجا ، ثم استودعته الله فى بكاءٍ وحزن أليمين .

(٢)

خرج نورُ الدين ومعه كيسٌ به مائة دينار ، وكيسٌ آخرُ به ألف دينار كان بجوار صندوقٍ لأمه فى الحجرة فأخذه معه ، ثم انسلّ من زقاق ، ومشى قاصداً « بولاقَ » ، فوصل إليه فى الصباح ، وصار يمشى على ساحل النهر هُناك ، فرأى مركباً راسياً ، وسألَ أصحابه : إلى أين تذهبون ؟ فقالوا : إلى الإسكندرية .

فعرض عليهم أن يُسافر معهم إليها فرضوا فرحين ، واستأذنهم أن يذهب إلى السوق ليشترى حاجته من زادٍ وفرشٍ وغطاء ، على أن ينتظروه حتى يرجعَ اليهم . فانتظروه بعض الوقت إلى أن عاد إليهم ومعه ما اشتراه ، ثم سار المركبُ به حتى كانَ عند مدينةِ رشيد ؛ وكان هناك زورق يسير إلى مدينة الإسكندرية ، فركبَ فيه نور الدين ؛ وسار به حتى طلعَ منه عند قنطرةٍ قريبةٍ من باب سدرة ، وما زال ماشياً حتى دخل

مدينة الإسكندرية ، فرآها حَصينَةَ الأسوار ، جميلة المتنزهاتِ ، مرتفعةَ الأبنية ، مُنسَّقةَ مُنظمة ، عامرة بالسكان ، يألفُها من ينزل فيها ، وتزهو على غيرها ببحرها الذى هُو كلَّ وقت يحيّيها ، ويبعثُ فيها الحياة السعيدة ، بطيب هوائه ، وحسنِ منظره .

فمشى نور الدين فيها حتى كان فى سوقِ النجارين ، ثم تركها إلى سوقِ الصّرافين ، ثم إلى سوقِ البقلية ، ثم إلى غيرها من أسواق الفاكهيّين والعطارين .

وبينما هو سائرٌ فى سوق العطارين أقبل عليه من دكانه رجلٌ عجوز وسَلَّم عليه ، ثم أمسك يده وسار به إلى منزله ، ودخل به فى زقاقٍ جميل مكنوسٍ مرشوش ، قد هَبَّ فيه النسيم صافياً عليلاً ، وأظلته الأشجار بظلالها الممدودة ، حتى وصلا إلى دارٍ فى صدر الزقاق ، فدخلها الشيخ ومعه نور الدين ، فرآها واسعة الحجرات ، مفروشة بالأثاث الفاخر الذى يدلّ على أن صاحبها من الأغنياء الموسرين ، فجلسا وأكلا طعاماً شهيًّا ، ثم قال الشيخ : يا بُنىّ ، لا تبرح هذه الدار ، وسأجعلُ لك فيها مسكناً خاصًّا بك على أن أقوم بما تحتاج إليه من نفقات المعيشة ، ولا تجعلْ لضيق الغربة إلى صدرك سبيلًا .

فقال نور الدين : أُحبّ أن أعرف من أنت أيها الشيخ الكريم ؟

فقال : دخلت مصر واشتغلتُ بالتجارة فيها ، ومرَّت بى أزمةٌ ماليةٌ احْتَجْتُ فيها إلى ألف دينارٍ ، كانت ديناً علىَّ إلى التجّارِ ثمناً لبضاعةٍ ،

فدفعها عنّي والدُك على غير معرفة ، ولما يسَّر اللهُ لى رددْتها إليه شاكراً ، ولا أزالُ ذاكرًا معروفه ، وكنتُ قد رأيتُكَ وأنتَ صغيرٌ فعرفتُك الآن ؛ وأحِبُّ أن أجزِىَ بالخيْرِ والِدَكَ ، وأرُدَّ جميله بإكرامكَ أضعافاً مضاعفة ؛ ففرِح نور الدين ، وناوَله الكيسَ الذى به ألفُ دينار ، على أن يكون وديعةً عنده ، حتى يشترى به بضاعةً يتجرُ فيها .

أَقام نور الدين بالإسكندرية مدة ، مُتنقِّلًا بين شوارعها ومُتنزهاتها وهو ينفقُ من المائة دينار حتى نفِدَتْ ، فذهبَ إلى الشيخ فى دكانه ليأخُذ شيئًا من وديعتهِ يُنْفِقهُ ، وجلسَ ينتظرُهُ ، ويتأمَّل فى التجار وأقوالهم وأفعالهم ، وبينما هو جالسٌ إذْ أقبَل أعجمِىٌّ راكبًا بغلة ، ومن خَلفِه جارية سَمْحة الوجْهِ ، صافيةُ البشرةِ ، كأنَّها خُلقت من نور .

نزل الأعجمىُّ وأنزل الجاريةَ ، ثم صاح بالدَّلال فحضرَ بيْن يديه ، فأمرهُ أن يأخذ الجاريةَ ليبيعها فى السوقِ ؛ وبعد ساعة رجعَ الدَّلال ومعه الجارية وكرسىٌّ من « الآبنوس » المطعَّم بالفضة ، فأجلس الجارية عليه ، ثم كشفَ القناعَ عن وجهها ، فحسِبْتُه كوكبًا دريًّا .

ثم قال الدلال للتجار :

كم تدفعون فى درَّة الغواص ؟

فقال تاجرٌ : علىَّ بمائة دينار .

وقال آخرُ : بمائتين .

وقال ثالث : بثلاثمائة .



وما زال ثمنها يزيد حتى بلغ تسعمائة وخمسين ديناراً ، ولم يزد بعد ذلك ديناراً واحداً ، فأقبل الدلال على الأعجمي يستشيره ويسأله :

هل تبيعُ الجارية بتسعمائة وخمسين ديناراً ؟

فقال : لقد ضَعُفتُ في سَفرَتي هذه فأكرمتني ، وقامت بخدمتي على أحسنِ وجْه ، ولهذا فقد جعلتُ بيعَها في يَدِها فاسألوها : أترضى بذلك البيع أم لا ؟

فسألها الدلالُ : قد جَعلَ سيدُكِ أمْرَ بيعكِ في يدكِ ، وقد بلغ ثمنُكِ تسعمائة وخمسين ديناراً ، فهل أنتِ راضيةٌ ؟

فقالتْ : أرِني الرّجُل الذي يُريدُ شرائي قَبْلَ أن أجيزَ البيع .

فجاءها الدلالُ بشيخ عَجُوز ، فحدّقتْ فيه ببصرها طَويلا ثم التفتَتْ إلى الدّلال قائلة : هلْ أصابَكَ جُنونٌ ؟!

فقال : لماذا ؟!

فقالتْ : ألا تخافُ من الله حتى تبيعَني لهذا الشيخ العَجوزِ الذي يَشْتُم زوجه ويَرْميها بأقبح الأوصافِ ؟! لَقَدْ أضْعفَ الكِبَرُ جسمه وعقله فأصْبَح لا يصحُّ شيءٌ سَليم في ذهنهِ .

فقال الشيخُ للدلال غاضباً : يا أنجَسَ الدلالين ، ما جِئْتنا إلا بجاريةٍ بذيئة اللّسانِ ، لا تُنزلُ الناسَ منازِلهم .

فالتفتَ إليها الدلاّلُ قائلا : لا تكوني سيئة الخُلق ، فقدْ اعتديْتِ

على شيخ السّوق ، وأسأت إلى مشورة التجار .

فضحكت وقالت : لا أرضى أن أباعَ لهذا الشيخ ولو ملأ حِجْرى ذهباً .

فعرضَ عليها تاجراً آخر غنيًّا وقال : أرضيت أن أبيعَك إلى سيدى شرف الدين هذا بتسعمائة وخمسين دينارا ؟

فنظرت إليه فوجدته قد صبَغ لِحْيته ، فقالت : لا تزال مُتّهماً فى عقلك عندى إذْ تعرض علىّ شيخاً فانياً، فهل رأيتنى روحاً بلا جسدٍ حتى تطوفَ بى على شيخ بعد شيخ ، وكلاهما كأنهُ جدارٌ آيلٌ للسقوط ، أو عفريتٌ محقَهُ النجْم فخرّ هابطاً ؟ لقد تكاثر الغشُّ حتى صار فى الأمَم .

فغضب الشيخ الثانى وقال للدلال : يومك أنحسُ من وجهِك ، إذ جئتنا بجارية سَفيهة ؛ ثم لطمهُ على وجهه وتركه إلى دكانه .

فقال لها الدلال : ما رأيتُ أشأم من يومِك ، فقد ضيعتِ فيه رزقى ورزقك ، ببذاءة لسانك ، وقلة حيائك . ثم قابله تاجرٌ يسمى شهاب الدين وزاد ثمنها عشرة دنانير ، فشاورها الدلال فى ذلك ، فقالت : حتى أراهُ وأسأله عن شىء فى بيته

فقال للتاجر : لقد عرفت ما فعلتهُ بالتجار من قبلك ، وقد شاورْتها فقالت : أرنيهِ حتى أسأله عن شىء فى بيته ، وأخشى أن تقابلها فتسمع منها ما لا تحب ، ترجعَ علىّ بالعتب واللوم ، فإن أذِنْتَ لى أحضرْتُها إليك ، ولا حَرجَ علىّ بعد ذلك .

فقال : أحضِرْها ولا لَوْمَ عليك .

فلما حضرتْ قالت :

يا سيِّدى شهاب الدين ، هلْ فى بيتك قِطَعٌ من فَرْشٍ مُسْتديرةٌ ، ومحشُوَّةٌ بقطع من فَرْو السِّنجاب ؟

فقال : نعم ، عندى منها عَشْرٌ ، وماذا تصنعين بها ؟

فقالت : أضمها بعد أن ترقد على فمك وأنفك حتى تموتَ .

ثم التفتَتْ إلى الدلالِ قائلة : يظهرُ لى أنك دلالٌ خائبٌ ، إذْ عرضْتنى بعد الشيخين على رجُلٍ به ثلاثةُ عيوب : قِصرُه ، وكِبرُ أنفه ، وطولُ لحيته .

فلما سمع شهاب الدين هذا قال للدلال :

لا ينبغى لك أن تأْتيناَ بمثل هذه الجارية ، التى لم يسلَمْ تاجرٌ من بذاءةِ لسانها ، وقساوَة لفظها .

فأخذها الدلال فى يده وانصرف وهو يقولُ : ماذا جنيْتُ يا ربِّ حتى تكون هذه الجارية من حظى هذا اليوم ، فتفضَحَنى بين التجار ، وتقفِلَ فى وجهى باب رزقى ؟!!

ثم وقفَ بها على تاجرٍ يُدعى علاء الدين ، له جَوارٍ وغلمانٌ ، فاستشارها فيه فقالت : إنه أحدب .

فعرضها على تاجرٍ آخر واستشارها ، فقالت : إنه أَعْمش .

فمشى بها قليلًا ثم سألته : إلى أين نذهبُ ؟

فقال : إلى سيدكِ الأعجمي ، وكفى ما جَرى لِي بِسَبَبك ؛ فاعتمدتْ هي على نفسِها فى البحثِ عَنْ سيّدٍ يليقُ بها ، وجَعلتْ تلتفِتُ يمنةً ويسرةً حتى وقعَ نظرُها على نور الدين المصريّ ، فوجدتْه شاباً فى رونق الشباب ، رَشيقَ القدّ ، وضيءَ الوجْه ، كحيلَ العيْن ، ضاحكَ الثغْرِ ، فشُغِفَتْ به حبّا ، وقالت للدلال :

ألَمْ يزِدْ ذلك التاجرُ فى ثمنِي شيئاً ؟ وأشارت إليه .

فقال الدلال : ذلك شابٌّ غَريبٌ أبوُه من أكابرِ تجار مِصر ، جاء إلى الإسكندرية مُنذُ مُدةٍ قَصيرَة ، ولم يتكلَّمْ فى ثمنِكِ بنَقصٍ ولا زيادة .

فنزَعَتْ الجارية من إصْبَعها خاتَمَ ياقوتٍ ، وناوَلتْهُ إلى الدلّال وقالتْ : هذا الخاتمُ لكَ إن اشتراني هذا الشاب ، نظير تَعبك مَعى هذا اليوم ، فاجمعني به ، فلعلّه يرغَبُ فى شرائي ، فلما كانَتْ بينَ يديْه رأتْه جميلا وَديعاً ، فتقدَّمتْ إليه وقالت باللهِ يا سيدى أما تراني جاريةً مليحَةً ؟!

فقال : ما رأيت أجمل منك !

فقالت : ولكنّك لم تزدْ فى ثمني شيئا مع التجار ، وكأنني لم أُعجبك .

فقال : ليتَكِ كنتِ بمِصرَ بلَدِي ، ولو كنّا هُناكَ لاشْتريتُك بجميع ما أملكهُ من المال .

فقالت : ما أردتُ أن تشتريني الآن على غير رغبةٍ منك ، ولكنكَ لو زدْت فى ثمني ديناراً واحداً لجبرْتَ خاطرى ، ورفعتَ قيمَتى ، لأن

النَّاسَ يقولون حينئذٍ ، لولا أن هذه الجاريةَ مليحةٌ لما تقدَّمَ لشرائها هذا الشابّ المصرِيُّ، لأن أهلَ مصرَ مَعروفون بأن لهم خبرَةً بالجواري الحسان .

فاستحيا نور الدين وأرادَ أن يصنعَ فيها هذا المعروفَ ابتغاءَ وجه الله ، والتفت إلى الدلالِ سائلا : كَمْ بلغَ ثمنُ هذه الجارية ؟

فقال : بلغَ ثمنُها تسعمائةٍ وخمسين ديناراً غير الدلالة ، وأمّا رسومُ السلطانِ فإنها عَلَى البائع .

فقال نور الدين : اشتريتُها بألفِ دينارٍ ، دلالة وثمناً .

فقالت الجارية على الفور : بعتُ نفسي لهذا الشابّ بألف دينار .

فسكتَ نور الدين ، وظهرت على وجهِهِ أمارةُ الحيرة .

فقال أحد الجالسين : يستأهِل .

وقال آخر : لعلّهُ يصغرُ ويغدِر .

وقال ثالث : ملعونٌ ابن ملعون من يزيد الثمن ولا يشترِي .

وقال رابع : إنه مِصري ولا بدَّ أنهُ يعرِفُ قيمتَها .

وقال خامس : واللهِ إنّ كلاًّ منهما يصلُح للآخر ، ولعلّ الخيرَ في الواقع

وأحضَر الدلال في الحال القاضيَ والشهودَ ، وكَتبُوا عقدَ البيْعَ ، وناوله الجاريةَ والعقدَ ، وقال : إنها لا تَصْلُحُ إلا لَك ، ولا تصلُح أنت إلاَّ لها ، فلمْ يجدْ بُدًّا من تنفيذ البيْع ، وأحضَر للدَّلال الألف الدينار التي كانت وديعةً له عند التاجر صاحِب والده ، وسارَ بالجارية إلى البيتِ

الذى أسكَنَه فيه صاحبُ والدِه ، فوجَدَتْ فيه أثاثاً قديماً عتيقاً ، فسألته : أهذا بيتك وأثاثُك ؟

فأجابَها : إنى غريب ، وبلدتى مِصر ، وهذا بيتُ تاجر صديق أبى ، أسكننى فيه مدة إقامتى بهذِه المدينة .

فقالت : أقلُّ بيتٍ يكفينا حتى ترجعَ سالماً إلى بلدِك وأهلك ، وعليك أن تُحضِرَ لنا شيئاً من اللحْمِ المشوى والنُّقْل والفاكهة .

فقال نور الدين : وكيفَ الحالُ ؟ وكيفَ أستطيعُ إحضار شىء ، ولم يكُنْ معى من المال غيرُ ألفِ الدينار التى دفعتها ثمناً لكِ ، فأصبحتُ لا أملكُ قليلاً ولا كثيراً ؟

فقالت : أليسَ فى المدينةِ صديقٌ يُقرِضُك خمسين درهماً تأتينى بها ، لأشيرَ عليك بما نُرِيدُه منها ؟ !

فقال : ليس لى هنا سوَى ذلك التاجر صديق والدى ، وإنِّى ذاهِبٌ إليهِ أسألُه أن يُقرِضَنِيها .

ولما كان نورُ الدين عند التاجرِ سأله عما فعله بالألف الدينار ، فقال : اشتريتُ بها جارية .

فقال : ومن أوقعك فى هذِه الورْطة ؛ جارية بألفِ دينار ؟ ! ! ومَن تكونُ هذه الجارية ؟ !

فقال : نور الدين : جارية من بناتِ الإفرنج .

فقال : أغلى جارية من بنات الإفرنج هنا بمائةِ دينار ، فكيف

تَشتريها بألف ؟! إن كنت يا ولَدى قد أحبَبْتَها فهىَ فى يدِكَ حتى تطمئن إلى مَشورَتى ، ولكَ أن تَبيعها بأىِّ ثَمنٍ ولو خسِرْتَ فيها مائتىْ دينار .

فقال نور الدين: تلك إرادةُ اللهِ ، وسأجْعَلُ نصحَك موضع اهتمامى ، وإنى الآن فى حاجةٍ إلى خمسين درهما أنفقُ منها إلى غدٍ حتى أبيعَ الجارية أو يُسَهِّلَ اللهُ لى سبيلاً أُرْزَقُ منهُ .

فقال التاجرُ : خُذ الخمسين درهماً ، وإنى على استعدادٍ أنْ أمدَّك بالمال مرتين وثلاثاً إلى عَشر ، وبعدَها لا أُعطيك شيئاً ، ولا أرُدُّ عليك سَلاما ، وقد يكونُ ذلك سبباً فى القطيعة بينى وبيْن أبيك ، فاجتهد ألاّ تكون سبباً فى افتراقنا ، وقَطْع حَبْلِ الصَّدَاقةِ بينى وبين والدِك .

ودخَلَ على جاريته وفى يدهِ الخمسون درهما ، وأخبرَها بما حصَلَ بينه وبيْنَ التاجرِ ، فقالتْ له : اذهَب إلى السُّوق واشْتَرِ حَريراً ذا ألوانٍ خمسةٍ بعشرين دِرْهماً ، وخُبزاً ولَحْمًا وفاكهةً ومَاءَ وَرْدٍ بثلاثينَ دِرْهَمًا ،

فخرج إلى السوق وأحضَر لها ما أمرتْ به ، فقامَت لِسَاعَتِها ، فجهَّزت الطَّعامَ ، وأكلاَ وشرِبا ، ثمَّ ذهب هو إلى فراشِهِ ونام ؛ أما الجارية فإنَّها صنَعَتْ من الحرير زُنَّاراً بديعَ الشكلِ جميلَ الصُّنْع ، ثم وضعتهُ تحتَ المخدة ونامت . وفى الصباح صلَّيا وأكلا ، ثمَّ مَدَّتْ يَدَها تحت المِخدَّةِ وأخرَجَت الزُّنَّارَ ، وقالتْ لسيِّدها : بِعْهُ فى السُّوق ولا تفرِّطْ فيهِ إلاَّ بعشرين دينَاراً .

فسألها : ومنْ أين جاءكِ هذا الزنّار ؟

فقالتْ : صنعتُه بيدى وأنت نائم ، من الحريرِ الذى اشتريتَه .

فقال : حريرٌ بعشرين درهما يُعملُ منه فى ليلةٍ واحدةٍ شىءٌ يباعُ بعشرين دينارا ؟ !

فقالت : أنتَ لا تعرفُ قيمته ، فاجعل الدلالَ يقومُ بِبيعهِ ، ولا تبع إلا إذا كان الثمن عشرين ديناراً .

خرج نور الدين إلى السوق وقابل الدلال وأعطاه الزنار ، وأمره ألا يبيعه بأقل من عشرين ديناراً ، على أن يدفع المشترى أيضاً سمسرة الدلال .

أخذ الدلال الزنار ، وعرضه فى السوق ، وبعد ساعةٍ حضر إلى نور الدين وقال : قم لتأخذَ ثمن الزنار ، عشرين ديناراً ؛ ففرح وقام بينَ مُصدّقٍ ومكذب .

فلما أخذها عجب غايةَ العجب ، واشترى بها جميعها حريراً ليُعملَ منه زنانير ، ثم رجعَ إليها وناولها الحرير ، وقال : اصنعى منه زَنانيرَ ، وعلمينى صُنعها ، فإنى ما رأيتُ أخفَّ منها صنعة ، وأعظم ربحاً ؛ فضحكت الجارية وقالتْ : اذهبْ إلى صاحب أبيك واقترضْ منه ثلاثين درهما ، وأحضرْ بها طعاماً كما فعلتَ بالأمس ، وبلِّغْهُ أنكَ سترُدّ إليه الثمانين درهما غدًا ؛ ففعلَ وأحضر إليها اللحم والْخبزَ والنُّقلَ والفاكهة ، فأعدّت من ذلك مائدة فاخِرة .

ولما جاء الليلُ ونام ، قامت الجاريةُ إلى حريرها فصنعتْ زناراً ، ثم نامتْ ، وفى الصباحِ ناولتهُ الزنار على أن يبيعه فى السّوق بعشرين ديناراً ، فباعه وأعطى صاحبَ أبيه الثمانين درهما كما وعده ، وشكر له فضله وحسنَ معونته . فسأله التاجرُ : هلْ بعتَ الجارية ؟

فقال : وكيفَ يبيعُ المرءُ روحه ؟ ! !

فقال : ومن أين جاءتك الدراهم ؟

فحكى له كل شيء ، ففرح التاجرُ وقال : الحمد لله الذى كتب لكَ الخير ، ورزقك من حيثُ لا تحتسب ، واعتقدْ يا بُنى أنكَ فى خيرٍ دائماً ، ما دمتَ نقى السريرة ، مخلصاً لله فى عملك ؛ ثم ودّعه وذهبَ فاشترى الطعامَ له ولجاريتهِ حسبَ عادته ، ورجعَ إلى بيته .

ولم يزالا على هذه الحال ، من صُنعِ الزنانير كُلَّ ليلة وبيعها ، وادخار ما بقى من ثمنها سنة كاملة ، وفى ذات يومٍ أمرته أن يشتريَ لها حريراً ، من ستة ألوان ، فأحضرهُ وصنعتْ له منديلا وضعهُ على كتفه ، ومشى به فى السوق فنالَ إعجاب التجار والأعيان .

(٣)

وفى ليلةٍ من الليالى استيقظ نور الدين على بكاء جاريته ، فسألها : ما بالك تبكين ؟

فقالت : فراقٌ أحسَّهُ قلبى فبكيتُ من ألمه .

فقال : وما الذى يفرّقُ بيننا وقد أصبحتِ روحى ونورَ عينى ؟ !

فقالتْ : وأنت حياتى ، ولـكن حسن الظنّ بالأيام من أسباب الحسرة والآلام .

ثم قالت : يا سيدى نور الدين ؛ إن كنت حريصاً على عدم افتراقنا فخذ حذرك من رجلٍ أعجمى إفرنجى ، بعينهِ اليمنى عَوَر ، وبرجله اليسرى عَرَج مُغبرّ الوجه ، كَثيف اللحية ، فلن يكون سبباً فى افتراقنا أحدٌ غيره ، وقد رأيته فى هذه المدينة ، وأعتقد أنه ما جاء إليها إلّا فى طلبى .

فقال لها : لا تخافى ، فإنْ رأيته قتلته .

فقالت له الجارية — وكانت تسمَّى مريم الزنارية — : ابتعدْ عنه ، فلا تقتله ، ولا تُكلمه ، ولا تبايعْه ، ولا تعاملْه ، ولا تجالسه ، ولا تُماشه ، واقطع صلتك به ، ولا تجعلْ له سبيلا إليك ، وادعُ الله أنْ يكفينا شره ومكره .

وفى الصباح أخذ نور الدين الزنّار وذهب إلى السوقِ ، فجلسَ على مصطبةٍ يتحدثُ هو وأبناء التجار ، فأخذته سنةٌ من النوم ، فتركهُ أبناء التجار نائماً ، فمر به الرجلُ الأعجمى الأعورُ الأعرجُ ، الذى تخشاه جاريته مريمُ ، والذى حذّرته أن يتصلَ به .

وجلس الأعجمى بجانبه ، وجعل يقلبُ فى أطراف منديله الذى كان قد وضعهُ على وجههِ ، فأحسّ نور الدين واستيقظ ، فرأى ذلك الأعجمى الذى وصفتْه مريم ، فصرخ فى وجهه صرخةً عالية ، اهتز لها بدنه ، فقال :

لِمَ تصرخ فى وجهى ، فهلْ فعلتُ شيئاً تكرههُ أوتنكرُه ؟ !

فقال نور الدين : يا ملعونُ ، لوْ فعلت شيئاً من هذا لنهبتُ بك إلى الوالى .

فقال الأعجمى : يا فتى، بحقّ دينك وعقيدتك ، أخبرنى : من أين لك هذا المنديل ؟

فقال نور الدين : إنه من صنع والدتى .

فقال : أتبيعُه لى ؟ !

فقال نور الدين يا ملعون ، لا أبيعُ هذا المنديل لك ولا لغيرك ، لأنها عملته لى ، ولم تصنعْ غيره ، فقال الأعجمى : إن بعته لى دفعتُ ثمنه خمسمائة دينار لك الآن ، وبعد ذلك تصنعُ هِى لك منديلا غيره أحسن منه .

فقال نور الدين : ذلك منديل لا نظير له فى المدينةِ ولن أبيعَه أبداً .

فقال الأعجمى : أشتريه منك بستمائة دينار من الذهب الخالص

ولكنّ نور الدين لم يرضَ أن يبيعه ، فجعل الأعجمى يزيد فى ثمنه حتى كان ألف دينار ؛ وكان قد حضر جماعة من التجار ، وسمعوا هذا كلّه ، فقالوا : نحنُ بعناكَ هذا المنديل فادفع ثمنه فوراً ؛ فأبى نور الدين أن يبيعه ، فمال عليه أحد التجار وأسرّ إليه .

إن هذا المنديل قيمته على الأكثر دينار ، وهذا الأعجمى يدفعُ فيه ألف دينار ، فكيفَ لا ترضى وربحكَ فيه يزيد على تسعمائة دينار ؟ !

إن الحزْم يقضى أنْ تبيعه ، وتجعل من صنعهُ لك يصنع غيره ، ويبقى

لك الربح الوفيرُ ينفعك ويعينك على حوادث الأيام .

فغرته كثرةُ الربح ، وباعَ المنديلَ ، وأخذ الألف الدينار .

ثم هم أن يرجعَ إلى جاريته ليبشرها بما حصل عليه من ربح عظيم ، فقال الأعجمى : احجزوا نور الدين فأنتم وهو ضيوفى هـذه الليلة ، لأن عندى خروفاً سميناً ، ونقلا ، وفاكهة كثيرة ، وأُحبُّ أن يأتنس بكم منزلى هذه الليلة ، فلا يتأخر منكم أحد .

فألح التجارُ على نور الدين أن يبقى معهم ، وحلفوا عليه ألّا يفارقهم تلك الليلة ، وقاموا لساعتهم فأقفلوا دكاكينهم وأخذوا نور الدين معهم إلى قاعة الأعجمى الذى صحبهم ، وكانت نظيفةً مطيَّبة ، ذات إيوانين ؛ فجلسوا على كراسيها المصفوفة ، وأمامهم سفرةٌ عجيبة الشكل ، غريبة الصنع ، نالتْ إعجابهم ، ثم وُضعَ عليها أوانٍ من البلور والصينى ، مملوءةٌ بأصناف النقل والفاكهة ، ثم جعل يشوى من لحم الخروف ويضع على السفرة أمامهم ، وهم يأكلون ، وظل يقدم لهم من النقل والفاكهة حتى أتخمهم ؛ ثم هيأ لهم جميعاً مجلس غناء جميل قضوا فيه الليل إلا أقله ، وأحس الرجل الأعجمى أن نور الدين بدأ يخف تعلقه بجاريته مريم على غير رغبة منه ، فعرض عليه أن يشتريها ، فنفر نور الدين ، فما زال به الرجل يغريه ، والتجار يعاونونه فى الإغراء ، وتقرب منه الأعجمى ولاطفه وصرف الحديث عن هذا الموضوع قليلا ، ثم عاد إليه ، وجلس بجواره وقال :

هل تبيعُنى جاريتك التى اشتريتَها بألف دينارٍ منذ سنة ، وسأدفع لك

ثمنها خمسة آلاف دينار ، فأبى نور الدين أن يبيعها ؛ فجعل الأعجمىُّ يزيد فى ثمنها حتى بلغ عشرةَ آلاف دينار ؛

فقال نور الدين بعد أن ضاق بالأعجمى والتجار : بِعْتُكَهَا بعشرة آلاف دينار .

ففرح الأعجمى وأشهد عليه التجار ، وباتوا فرحين .

وفى الصباح أمر الأعجمى غلمانه أن يُحضروا له عشرة آلاف دينار فأحضروها ، ثم قال يا نور الدين خُذ العشرة الآلاف دينار ثمن جاريتك التى بعتنها لى الليلة الماضية أمام هؤلاء التجار .

فقال نور الدين وقد أفاق من تعبه : يا ملعون ، ما بعتُك شيئاً ، وأنت تكذب علىَّ الآن .

فقال الأعجمى : كيف تكذِّبنى وهؤلاء شهود على صدق فيما أقول ؟

فقال التجار : يانور الدين ، لقد بعتَه جاريتك الليلة الماضية أمامنا بعشرة آلاف دينار ، ونحنُ شهودٌ بذلك عليك ، فخذ ثمنها ولا تطرُدْ نعمة ربِّك ، أتكره أن تشترى جاريةً بألف دينار ، ثم تربحُ فى ثمنها تسعة آلاف دينار ؟ ! إن كانت جميلة فى نظرك فغيرُها أجملُ منها ، والذى خلقها خلق غيرَها ، ومَعك ربحٌ عظيم تستطيعُ أن تشترى به مَنْ تشاء من الجوارى ، أو تتزوج منه بإحدى بنَاتنا ، وتتَّخذ بقية الربح رأسَ مالٍ لتجارةٍ تنال منها ربحاً وفيراً ، ورزقاً واسعاً ، وما زالوا يرغبونه فى إتمام البيْع حتى رضِي ، وحضر القاضى وكتب عقد البيع وتسلَّم الثمن .

(٤)

أما مريم الزنارية فقد لبثت تنتظر نور الدين فلم يعدْ ، ولما انتصف الليلُ ولا يزال غائباً جعلت تبكى بُكاءً مُرًّا ، فأحسَّ التاجر صاحب أبيه منها هذا البكاء ، وأرسل إليها زوجته لتسألها عما يبكيها ، فقالت : تأخر سيدى نور الدين إلى هذا الوقت ، وأخافُ أن يكون أحدٌ قد دبَّرَ له مكيدة حبسته عنّى ، أو جعلته يبيعُنى ، وتأخر من أجل ذلك عن العودة إلى بيته .

فقالت : إنا نعلمُ أن سيّدَكِ لن يَبيعك بِلء هذه القاعة ذهباً ، وربما أتى إليه جماعة من عند والده بمصر ، فأحَبَّ أن يُكرمهم فى المكان الذى نزلوا فيه ، ولم يشأ أن يجىء بهم إلى هذا البيت لأنه يحبُّ أن يبقى أمرُكِ خفيًّا ، أو لأن البيت لا يليق بهم ، ففضَّل أن يلبث معهم تلك الليلة ، وفى الصباح سيكون عندكِ إن شاء الله تعالى فلا تحزنى وسأبيت معكِ هذه الليلة ، لأزيل عنكِ هذا الهمَّ حتى يحضر سيدكِ وتفرَحى بلقائه .

وفى الصباح رأت مريم سيدها نور الدين قادماً فى الزقاق ومَعَهُ الأعجمى وجماعةٌ من التجار ، فاقشعَرَّ بدنُها ، واصفرَّ لَوْنُها ؛ فسألتها زوجة التاجر عما طرأ عليها ، فقالت : صَدَقَ ظَنّى وسأتجرَّعُ ألم الفراق ، أما قلتُ لكِ يا سيدتى : إن سيدى قد خُدِعَ وباعنى ؟! وإنى لا أشكُّ الآن فى أنه باعنى إلى هذا الأعجمى الذى كثيراً ما حذرته منه ، ولكن لا يمنع حَذَرٌ من قدر .

فلما دخل عليها سيدها نور الدين ؛ اغبرَّ وجههُ من الحزن ، وضاق صدره من الألمَ ؛ واغرورقت عيناه بالدموع لقرب الفراق .

فقالت له مريم : كأنك بعتنى الليلة يا سيدى ! !

فتنفَّس الصُّعداء وقال : هِيَ المقادير لا يُغنى فيها حذر ، وإن كنت أخطأتُ فما أخطأَ القدر .

واعتذرَ نورُ الدينِ للجارية وقال : تلكَ خديعةٌ أُحكِمَ تدبيرُها فوقعتُ فيها ، وأرجو من اللهِ الذى قضى علينا بالفراق ، أن يمنَّ علينا عاجلاً بالتلاق ، فهو القاهرُ القادرُ ، وهو الذى يتولى الصابرين .

وتقدمَ الأعجمى إلى الجارية يُقبلُ يدها ، فلطمتْه بكفها على وجْهِهِ ، وقالتْ :

ابتعدْ عنى يا ملعون ، فما زلت تجدّ فى طلبى ، حتى خدعتَ سيدى ، ولكنْ إن شاء اللهُ لنْ يكون إلا كلُّ خير .

فضحك الأعجمىّ ضحكة صفراء ، وقال : لا ذنب لى فى هذا ، فسيدُكِ هو الذى باعكِ راضياً مختاراً ، ولو أنه يُحبُّكِ ما فرط فيك ، ولكنّ قلبَه خلا من حُبِّك فباعكِ .

(٥)

وكانتْ مريمُ الزناريةُ هذه بنتَ ملكِ مدينةٍ من مدائن « الإفرنج » ، وكانت مدينةً ممتدةَ الأطراف ، واسعةَ النواحى ، كثيرة المصانع ، عامرةً

بالسكان ؛ تشبه مدينة القُسْطنطِينية ، ولخروجها من مدينة أبيها حديثٌ عجيبٌ نسوقهُ إليك :

اهتمّ أبوها وأمها بتربيتها تربيةً كاملة ، فتعلمت الكِتابةَ والحساب، والفصاحة فى القول ، والفُروسية والشجاعة ، وكثيرًا من الصناعات : مثل الزركشة ، والخياطة ، والحياكة ، وصناعة الزنانير ، ورمى الذهب على الفضة ، ورمى الفضة على الذهب ؛ ومُنحتْ إلى ذلك الجمالَ الرائع ، والحسن الذى لا نظيرَ له ؛ فكانت فريدةَ عصرِها ، واعتزّ بها أبوها وأمها ، حتى أن أباها لم يرض أن تفارقه ، فأبى أن يزوّجها ، على الرغم من كثرة الطالبين لها من ملوكٍ وغيرهم من العظماء ، ولم يكنْ له بنتٌ غيرها ، وإنْ كان عنده أبناء ذكور كثيرون .

مرِضتْ ذات مرة مرضاً أشرف بها على الموت ، فنذرَتْ إنْ هى شُفيتْ أن تزور الدّيْر فى الجزيرة ، وهو ديرٌ معظمٌ عندهم ، يتبركون بزيارتهِ ، وينذرون له النذور .

ولما عوفيتْ من مرضها هذا فرِح أبوها ، وسهل لها سبيل الوفاء بنذرها ، وزيارتها ذلك الدير فى الجزيرة ، فأرسلها فى مَرْكَبٍ ومعها جماعةٌ من بنات الأعيان وكُبراء المدينة .

وكان فى البحر مراكبُ للمسلمين فوقع مركبُ مريم أسيرًا لأحد مراكب هؤلاء المسلمين ، وسيقَ بمن فيه إلى القَيْرَوَان ، وهناك بيعت البناتُ ، واشترى مريمَ تاجرٌ أعجمى من التجار ، وكان طاعنًا فى السن ،

فاتخذها خادمةً له ، واتفق أن مرِضَ هذا التاجرُ مرضًا خطيرًا كاد يقضي عليه ، وطالتْ مدتُه ، وأخلصتْ مريمُ فى خدمته مدة مرضه حتى شفاه اللهُ ، وأحبَّ أن يُكافئها على خدمتِها ، وعطفها عليه فى أثناء مَرَضه ، فطلب منها أن تقترح ما تشاء من أنواع المكافأةِ ، فقالت : لا أريد شيئًا إلا أنك لا تبيعُنى إلا لمن أريدُه وأختارُه .

فقال : لكِ ذلك ، وقد جعلتُ أمْرَ بيعكِ بيدكِ ، ففرحتْ لذلك فرحًا عظيمًا ؛ وكان هذا الأعجمى قد عرض عليها الإسلام فأسلمتْ ، وعلَّمها الفقه ، وحفَّظها القرآنَ الكريم وكثيرًا من الأحاديث النبوية ، ولما جاء بها إلى مدينة الإسكندرية باعها على النحو الذى قرأتَه إلى نور الدين .

أما أبوها فلمّا بلغَه ما حَلَّ بها وبمَنْ كُنَّ معها من بنات الأعيان ، أرسَلَ فى طَلبِها أشدَّ وزرائه مكرًا ، وأعظمَهم حيلةً ، وأحكمَهم تدبيرًا ، وأقسام شدةً وعنفًا ، وهو ذلك الوزير الأعرجُ الأعورُ ، فأخذ يبحثُ عنها فى جزائرِ البحرِ جزيرةً بعدَ جَزيرة ، حتى انتهى به المطافُ إلى مدينة الإسكندرية ، وكان ما كان من احتيالهِ ومكْرِه ، حتى اشتراها من نور الدين وأصبحت فى يده ؛ ولما رآها حزينة باكيةً قال لها : لا ينفعُكِ هذا الحزن ؛ ولا أنتِ مستفيدةٌ شيئًا من هذا البكاء ، ومن الخير لك أن تقوى معى إلى مدينة أبيك ، مسقَطِ رأسِك ، ومَشرِقِ عزِّك ، ودار مُلكِك ، ومحلِّ نَعيمك وهناءتِك ، وخلِّى عنكِ هذه الغُربةَ

وهذه المهانة ، وكفانى ما لاقيتُه من عناء السفر وتعبه فى البحث عنك قُرَابة سنة ونصف سنة ، وقد أمرَنى والدُك أن أشتريكِ ولو بلغ ثمنُك ملء مركب ذهباً ، ولم يزل يسترضيها وهى تأبى عليه ، ويشتدّ غضبُها فى وجهه ، حتى قالت له :

إن أملى فى الله عظيم ألّا يبلّغك فى أمَتِه ما تريد .

ثم همّتْ لتقوم معه معتمدةً على ربّها ، مُسْلِمةً إليه وجهها ، راجية منه أن يبلغها هى مُرادها ، وتقدم إليها غلمان الوزير ببغلةٍ عليها سرجٌ مُزركش ، وأركبوها تلك البغلة ، وحملوا فوق رأسها مظلة غطاؤها من حرير ، وقوائمها من ذهبٍ وفضة ، ومَشَوْا بها حتى أنزلوها فى قاربٍ صغير ، سَبَحُوا به فوق الماء حتى وصلوا إلى مركبٍ كبيرٍ كان فى انتظارهم ، فلما ركبوه أمر الوزيرُ ربّانه أن يُقلع بهم فى عرض البحر إلى مدينة أبيها ، واستمرت مريم شاخصة فى حزنٍ وبكاء إلى مدينة الإسكندرية حتى غابت واختفت .

(٦)

ضاقت الدنيا على سعتِها فى وجه نور الدين بعد سفر مريم ، ودخل قاعته التى كان مقيما بها ، فرأى عُدّةَ مريم التى كانت تصنع بها الزنانير ، ورأى ثيابها ؛ فضمّها إلى صدره وبكى ، ثم نهض مُسرعاً ، وخرج يجرى إلى البحر الذى سافرت فيه ، فنظر إليه متأملاً باكياً ، وقال :

يا مريم ؛ أ كانت رؤيتى لك مناماً أم أضغاث أحلام ؟ !

فطلع شيخٌ عليه من مركَبه ، وقال :

يا بُنىَّ ، كأنك تبكى الجاريةَ التى سافرت البارحة مع الإفرنجى الأعور الأعرج ؟ !

فقال : نعم يا سيدى ، ولا بلّغه الله فيها مرادَه .

ووجده الشيخُ فتًى وَضىء الوجه ، جميل الخلْق ، فصيحاً رقيق العواطف ، مشتّتَ الفكر ، حزين القلبِ ؛ فرَق الشيخُ لحالة ، وعزم على أن يساعده ، وكان رئيس مركب مسافرٍ إلى مدينة أبى مريم التى سافرَتْ إليها ، وفيه مائةٌ من تجار المسلمين ، فقال له : لا تحزن يا بنىّ ، واصبرْ صبرًا جميلاً ، فإنى موصلُك على مركبى هذا إلى من تحبُّ وتهوى .

فقال نور الدين : أكرمك الله وأعانك ، ومتى تسافرُ ؟

فقال : بعد ثلاثة أيام .

ففرح نور الدين : وتوجه إلى سوق المدينة ؛ فأحضر ما يحتاجُ إليه من زادٍ مدة سفره ؛ وسأله الشيخ :

ما هذا الذى جئت به من السوق ؟

فقال : زادى وما أحتاجُ إليه فى سفرى .

فضحك وقال : هل أنت ذاهبٌ إلى عمود السَّوارى بالمدينة ؟ إن بينك وبين المدينة التى تقصدُها مسيرة شهرين إذا طابت الريحُ وصلح الجوُّ ، فأخذ منه بعض النقود ، وذهب إلى السوق ، فأحضر له ما يكفيه



من الزّادِ مُدة سفره، وبعد ثلاثة أيام أقلع بهم المركب، ولبثوا مسافرين واحداً وخمسين يوماً، ثم طلع عليهم قُرصانُ البحرِ من الإفرنج، فأسروا المركب ومن فيه، وذهبوا به إلى مَلِك المدينة، والدِ مريم الزنارية، فأمَرَ الملك بحبسهم جميعهم وفيهم نور الدين، وكان الوقت الذى ذهب فيه هؤلاء الأسرى إلى السجن هو الوقت الذى وصل فيه المركب الذى به مريم الزنارية ابنة الملك.

بلغ الملك نبأُ وصولِ ابنته، فنهض فرحاً مسرعاً بجنوده وحاشيته إلى الساحل لاستقبالها، وذاع الخبرُ فى المدينة فلبستْ زينتها، وانتشرتْ أفراحُها، وطبّق أجواءها أصوات الطبول والمزامير فرحاً بقُدوم مريم، وهناك على الساحل قابل الملك ابنتَه، وضمّها إلى صدْرِه وقبّلَها، ثم أركبَها جواداً مُطهّماً، وسار بها فى حَفْلٍ رائع إلى قصرِه، حيث قابلتْها أُمُّها فى فرحٍ وشوقٍ عظيمين، وكانت أُمُّها مُتلهفةً على معرفةِ حال ابنتها، فسألتْها عنها فقالت:

لقد هدّدنى بالضرب تاجرٌ اشترانى ثم باعنى إلى آخر، وصرتُ أتنقلُ من تاجرٍ إلى تاجر حتى أنقذنى ربى.

وكنتُ الآن بين يديك، فلا تزعجينى بالحديث فى أيام أَسْرِى، وضَعِى عليها غِطاء الكتمان. فاغتاظت أُمُّها وأخبرتْ فى الحال

زوجها ، فعرضَ الأمر على رجال دولته ، فقالوا :

لقدْ عذّبها من أسروها ، ولا يُثأر لها إلا بضَرْبِ مائة رقبةٍ ممن أسر ناهم ، فأمر الملكُ في الحال بإحضار الأسرى المسجونين ، وفيهم نور الدين وضرب أعناقهم بين يديه ؛ فجعلوا يضربون أعناقهم واحدًا بعد واحدٍ ، حتى لم يبق إلا نور الدين ، وبينما هُمْ يتقدمون به لضرب عنقه إذ طَلَعَ على الملك امرأة عجوز راهبة ، فقالت :

أيها الملك ، لقدْ كنت نذرتَ لكل كنيسة خمسةً من الأسرَى إنْ ردَّ الله عليكَ ابنتك مريم ، فهلّا وفيتَ بنذرِك ؟

فقال : لم يبْقَ عندى إلا واحدٌ منهم فخذِيه الآن ، وعند ما يقعُ فى أيدى أسرى غيرهم أبعثُ إليك بأربعةٍ منْهم ، ولو عجّلت بالمجىء قبل أن أقتلَهم لأعطيتك حاجَتك منْهم .

فشكرت العجُوز للملكِ جميلَ عطفه على الكنيسة ، ودعَتْ لهُ بدوام العزّ والبَقاء ، ثم تقدمتْ إلى نور الدين فوجدتهُ شابًّا فتيًّا جميلا ؛ ففرحتْ به وأخذته معها إلى الكنيسة ، وهناك نزعَتْ عنهُ ثيابه ، وأحضرت له جُبةً سوداء من صوف ، ومئزَرًا أسودَ وضَمته على رأسهِ على شكل العمامة ، وسَيْرًا أسودَ شدتْ به وسطه ، وقالتْ له :

عليك بخدمة الكنيسة ؛ فمكث فى خدمتها سبعة أيام ، وبعدها أقبلت العجوزُ على نور الدين وأمرتهُ أن يلبَس ثيابه الحريرية ، وأعطته عشرة

دراهم ، وقالت : اخرج الآن من الكنيسة ، واذهبْ إلى المدينة ، وتمتع بمناظرها ، وتعرّفْ نواحيها .

فقال لها : يا أمى ، وماذا جرَى ؟!

فقالت العجوز : إن مريمَ بنت الملك تريدُ أن تزورَ الكنيسة هذه الساعة ، وتقرّبَ لها قربانًا ، لسلامتها من أيدى الذين أسروها ، ومعها أربعمائة بنت من بنات الوزراء والكبراء ، وإذا وقع نظرهنّ عليكَ قطّعنَك بالسيوف .

فقال لها : سمعًا وطاعة ، وأخذ منها عشرة دراهم ، ولبس ثيابه ، وخرج من الكنيسة إلى المدينة ، وجعلَ يتنقلُ فيها حتى عرفَ نواحيها وشوارعها وطُرقها ومخابئها وأبوابها ، ثم رجع إلى الكنيسة فوجد مريم الزنارية بين البنات كأنها شمسُ الضحا ، فلم يطق صبرًا وصرخ قائلا: يا مريم ، فذكرها هذا الصوتُ بنور الدين ، وحدّقتْ فيه ببصرها ، فأيقنتْ أنه سيدُها نور الدين ، ولهذا صرفتْ عنه البناتِ اللائى هجَمْنَ عليه يردْنَ الاعتداء عليه ، وقالت لهن : على رِسْلِكُنّ ، لا تمسَسْنهُ بضُرّ ، فإنه مجنونٌ ، وعلاماتُ الجنون باديةٌ على وَجهه ، ويزدادُ ظهورها شيئًا فشيئًا .

فلما سمع منها ذلك عرف مرادها فتصنع الجنون ، وكشفَ عن رأسه ، وحملق بعينيه ، ولوى شِدْقيه ، وأخرج الزبَدَ من فيهِ ، واضطربَ فى حركاته وسكناته ، فقالتْ مريم :

أما قُلْتُ لكنّ إنه مجنونٌ وآثار الجنون تظهرُ فيه شيئًا فشيئًا ؟

فأحضرنه بين يدى ، وابتعدْن عنى حتى أستمع لكلامه — فإنى أعرف لغة العرب — وحتى أتبيَّنَ حاله ، وأعرف : هل يمكنُ أن يعالجَ من جُنونه هذا أو لا .

فأطعْنَ أمرها وأحضرنه أمامها ، وذهبن إلى نواحى الكنيسة ، بحيث لا يسمعْنَ من حديثهما شيئا .

قالتْ له مريمُ : ياسيدى وحبيبى ، خاطرتَ بنفْسِك وتصنعت الجنون من أجلى ؟ !

فقال : فى سبيلك أفعلُ كلّ شيء مهما يكن أمره .

فقالت : ألستَ الجانى على نفسك ؟ ! أما حذرتك هذا كله ؟ ! لقدْ رأيتُ الوزير الأعور الأعرج فى الإسكندرية فحذّرْتك منه ، وقلت : إنه ما جاء إلا من أجلى ، فلمْ تسمعْ لى قولا .

فقال : أعوذُ بالله من زَلة العقل ، وخيبة المسعى ، وضعف العزيمة .

وجلسا طويلا يتلاومان ، ويشكوان حُرقة الهوى وقَسْوة الأيام ، وكانتْ مريمُ لابسة حلة خضراء مزركشة بالذهب والجوهر ، فظهرتْ فيها جميلةً رائعة الحسْن ، فزاده ذلك هيامًا بها ، وأسفًا على فراقها .

ثم تركته مختبئا فى مكانه وذهبتْ إلى البنات ، وكان النهارُ قد انقضى وجاء الليلُ ، فقالتْ لهُن : هل أغلقْتن أبواب الكنيسة ؟ فقلْنَ : نعم ، وأحكمنا إغلاقها .

فقالت : هيا بنا إلى مكان السيدة مريم العذراء ، وهو مكانٌ بالكنيسة

يزعمون أن فيه سر مريم العذراء، فذهبن إليه وتبركن به ، ثم جعلنَ يطفن فى أنحاء الكنيسة ، وبعد أن فرغن من زيارتها قالت لهن مريم : تنام كلُّ واحدة حيثُ تشاء ، أما أنا فلا أزال فى شوق إلى الكنيسة لطول غيبتى عنها ، وأسْرِى فى بلاد مصر .

وتوزعت البنات ، كل منهن أوَتْ إلى ناحية رقدتْ فيها ، أما مريم فإنها ذهبت إلى حيث نور الدين مختبئ ، فرأته فى انتظارها على أحرّ من الجمر ، وجلسا يتحادثان .

وبينما هما غارقان فى فرحة التلاقى، إذ بغلام الكنيسة يضربُ ناقوسها إيذانا بانقضاء الليل و بإقامة شعائر الصباح .

فقالت مريم : كم يوما لك هنا ؟

فقال : سبعة أيام .

فقالت : هل مشيْتَ فى المدينة وعرفت طرقها ومخابئها وأبوابها من جهة البر والبحر ؟

قال : نعم ، عرفتُ كل شىء فيها .

فقالت : أتعرف صنْدوق النذرِ بالكنيسة ؟

قال : نعم .

فقالت : مادمت عرفت كل هذا فقد هان علينا الأمرُ ، فإذا مضى من الليلة المقبلة ثلثها فاذهبْ إلى صندوق النذور وخذْ منه ما تستطيع حمله ، وافتحْ باب الكنيسة الذى فيه الخوخة الموصلة إلى البحر واخرج ، فإذا

وجدت سفينةً صغيرةً ومد إليك رئيسها يده فطاوعْه وناوله يدك ، حتى يجلسك فى السفينة ، وانتظرنى فيها حتى أجىء إليك ، واحذرْ أن تنام فى تلك الليلة ، فيفوت علينا الغرضُ وتندمُ حيث لا ينفع الندمُ ، ثم ودعته وذهبت إلى البنات ، وخرجتْ بهن من الكنيسة فوجدت الخدم والبطارقة وقوفا أمامها ينتظرون ، فركبت بغلتها تحت مظلتها الحريرية ومشتْ فى حفل من البنات حتى دخلتْ قصر أبيها .

لبث نور الدين مختبئا فى مكانه ، حتى فتحت أبوابُ الكنيسة ودخلها الناسُ ، فاختلط بهم ، وذهب إلى العجوز رئيسة الراهبات ، فسألته :

أين رقدت الليلة ؟

فقال : رقدتُ فى المدينة بعيدًا عن الكنيسة كما أمرتِني .

فقالت : فعلت الصواب يا ولدى ، ولو بتّ فى الكنيسة هذه الليلة لقُتِلتَ أشنع قتلة .

فقال : الحمد لله الذى نجانى من شرّ هذه الليلة بفضل مشورَتك ونصيحتك . وجعل يباشِرُ عمله وخدمته بقية نهاره .

وفى الموعد المضْروب من تلك الليلة أخذ نور الدين ما شاء من صندوق النذر ، وخرَجَ من الباب المعهود إلى البحر ، فوجدَ السفينة فى انتظاره ، ووَجد رئيسها شيخا طويل اللحية ، ومعه عشرة رجال ، فناوله يده وجذبه إليه ، فكان بجواره بالسفينة ، ثم قال الرئيس لمنْ معه من الرجال : هيا بنا سيروا .

فقال أحدهم : كيف نسافر بالسفينة ومولانا الملكُ سيركبها غدا ، ليطوف بها فى البحر ، فإنه خائف على ابنته مريم من قرصان البحر ولصوصه ، فأخرج الرئيس سيفه من غمده ، وقطع به عنقه قائلا : كيف تخالف أمرى ؟

فقال أحد العشرة : وماذا فعل حتى تقتُلَه ؟ !

فالتفت إليه الرئيسُ وضرب عنقَه فأطارَ رأسه، ولم يزل يقتلهم واحداً بعد واحد حتى قتلهم جَميعهم ؛ ثم التفت إلى نور الدين غاضباً، وقال : انزلْ إلى البَرّ وفُكّ حبال السفينة حتى نسافر ، فخاف نورُ الدين ونفّذَ ما أمر ، وسارت السفينةُ فى البحر ، وإن نور الدين ليذُوبُ خَوْفاً ورُعباً ، ولم يعلم ما خبأهُ له القدر .

ولما أضْحَى النهارُ مدّ الرئيسُ يدَه إلى لحيتِهِ ونزَعها ، فبان من تحتها وجهُ مريم الزنارية ، فعجِب نور الدين ، وكاد يطير فرحاً ، وأيقنَ أن الأيام واتته وصالحتْهُ ، وأنه واصلٌ إلى بُغيَتِهِ ، فشكرت له هذا الشعور الوَفىّ الكريم ، وقالت فى نفسها : من هذه حالته فهو رجلٌ عظيم النفس كريمُ السجية ، يكره الرذيلة ولا يأتى الدّنية ، وكانت رابطة الجأش قوية القلب .

فقال لها نور الدين : لو أطَلْتِ علىّ مدة هذه الحيلة لمُتُّ من الخوف والفزع ، وصدرى ملتهبٌ بنار الاشتياق ، وألم الفِراق .

فضحكت مريمُ وقالت : الآن ذهب خوْفُك ، واطمأن فؤادُك .

ثم أحضرت الطعام والشراب فأكلا وشربا ، وعرضت عليه كثيراً من اليواقيت والجواهر ، وثمين الذخائر مما أحضرته من خزائن أبيها ، ففرح به وبها ، ومازالت السفينة سائرة بهما حتى رست على ميناء الإسكندرية ، فنزل نور الدين وربطها فى حجر كبير على الشاطئ ، وأخذ معه شيئاً من الجواهر والذخائر وقال لها : انتظرى هنا حتى أحضر لك نقاباً وحبرة وإزاراً وخُفّاً ، فإنى لا أحبُّ أن تنزلى المدينة إلا محجّبةً مُحْتشمة ، فقالت: احذر أن تبطئ ، فإنى أخاف أن يكون بطؤك سبباً فى مضرّتنا . فقال : سأعود إليك أسرعَ من الريح ، وذهب إلى زوجة التاجر صاحب أبيه : ليُحضِرَ من عندها النقاب والحبرة والإزار والخفّ ، ولم يعلم ماخبأه له الغيب.

وأصبح والدُ مريم ، وتفقّدها فلم يجدها ، فسأل عنها جواريها وخدمها فقالوا : ذهبت الليلة الماضية إلى الكنيسة ، ولم نعرف عنها شيئاً غير ذلك ، وسمع الملكُ إذ ذاك صرختين عظيمتين تحت القصر ، وجىء له بالصارخين، فقالوا : وجدنا عشرة رجال مقتولين على ساحل البحر ووجدنا سفينةَ الملك قد فُقدت ، وباب الكنيسة من جهة البحر مفتوحاً ، وبحثنا عن الأمير الذى كان فى الكنيسة فلم نجد له أثراً ، فقال الملك : مادامت سفينتى قد فقدت فمريمُ ابنتى فيها من غير شك ، ثم نادى رئيس الميناء ، وقال له : إن تلحق سفينتى ، وتحضر لى ابنتى ، وإلّا فأنى قاتلك ، فسألَ هذا رئيسةَ الكنيسة العجوز عما كان يقولُه الأمير ، فقالت سمعته يقولُ : إنه من مدينة الإسكندرية .

فأمر البحّارة أن يُعِدُّوا أنفسهم للسفرِ فوراً إلى مدينة الإسكندرية ، وجدُّوا في السفر إليها حتى جاءوها في الوقت الذي ذهب فيه نور الدين ليُحضر الملابس إلى مريم ، وكان من جُملة الإفرنج القادمين الوزيرُ الأعورُ الأعرجُ ، فعرفَ سفينةَ الملك وهي راسيةٌ ، فوقف بسفينته الكبيرة بعيداً ، وبعث بمركبٍ صغير به مائة جُندِي ، فلم يجدوا إلا سفينة الملك وبها مريم ابنتُه ، فأخذوها إلى مركبهم الكبير وطاروا على سطح البحر بسُفُنِهم إلى بلادهم ، حتى دخلوا بمريم على أبيها ، وهو جالسٌ في ديوان حكمِهِ ، فلما رآها حدّق فيها بغضبٍ ، ثم قال :

وَيلَكِ يا خائنة ، كيف تركتِ بلادك وبلاد أهلك ، ورحلت إلى بلاد أخرى ؟ ! !

فقالت مريم : ليسَ لِى ذنبٌ فيما حصل ، فقد خرجتُ الليلةَ الماضيةَ لأزور الكنيسة وأتبرّك بمكان السيدة مريم ، وفي غفلةٍ منّى هَجم علىَّ لُصوصٌ ، وشدّوا وثاقى ، وحَطونى في سفينتهم ، وسافرُوا بى إلى بلادهم ، فخادعتُهم وتحدثتُ معهم حتى فكوا وثاقى ، ولكنى بقيتُ في ضيقٍ شديدٍ حتى أدركنى رجالك ، فخلّصُونى ، وإنّى فرِحتُ بخلاصى منهُم فرحاً عظيماً .

فقال أبوها : كذبْتِ يا خاطِئَة ؛ لأقتلنّكِ شرَّ قتلة ، أما كفاكِ فعلَتُكِ الأولى حتى تخادعينا الآن ببُهتانٍ جديد ؟ ! ودخل عليه وزيره الأعورُ فوجده مُصرًّا على قتلها ، وكان يحبها حبًّا عظيما ، فأشار عليه أن

يزوجها له ، على أن يبنىَ لها قصرًا عالىَ البنيان ، وعليه من الحرس رجالٌ شداد ، فلا يستطيع أن يصل إليها فيه أحدٌ .

فرضىَ الملكُ وأبرمَ عقد الزواج ، وبدأت العمالُ تبنى القصرَ الذى يليقُ بها .

أما نورُ الدين فى الإسكندرية فقد استعار الملابسَ من زوجة التاجرِ صديق والده ، ورجع فلم يجد السفينة ولا مريم ، فاغتاظ وحزن ، ومشى على شاطئ البحر باحثًا متلفتًا هنا وهناك ، لعله يجد أثرًا لمريم أو سفينتها فلم يجد شيئًا ، ولكنه سَمِع أناسًا مجتمعين يقولُ بعضهم لبعض : ضاعت حُرمة الإسكندرية ، وطمِع فيها ضعافُ الأجانب من الفرنجة ، فأصبحت سفُنُها تخطفُ من شواطِئِها جهرةً ، وكأنّ جنودنا فقدوا ما لهم من قوةٍ ونخوةٍ ، فلم نرهم طاروا وراء السفينة ليردّوها غصبًا وعَنْوة ، وما عهدناهم إلا حُماةً فى شجاعةٍ وعزة ، فسألهم نورُ الدين عمَّا جرى فقالوا : جاءت مركب من مراكب الفرنجة ، فاختطفت سفينة من سفن المدينةِ بما فيها ورجعت هاربة ، فاشتد به الحزن وقال :

واضَيْعة المسعى ! !

فسألوه عن حاله ، فأخبرهم بقصته ، فأنكروا عليه سوء تصرفه ، وشتموه ووبخوه .

فمن قائل : ولم لا تخرجُها من السفينة دون نقاب ؟ !

ومن قائل : وهى إفرنجية فلَا عَتْب عليها .

ومن قائل كفاهُ ما جرى له ، وذلك جزاء الغبيّ الذى لا يُحْكِمُ تدبير أمره .

وجعلوا يرجمونه بالكلام القاسى حتى مرَّ بهم التاجر صديقُ أبيه ، فوقف يتبينُ أمرَه ولما عرف القصة غضب ، وقال : ولماذا لم تخرجْها من السفينة فور وصولها ، وتهربُ بها فى غِمار المدينة ؟ ولكن لا فائدة من الندم الآن ، والبكاء على الفائت نقصٌ فى العقلِ ، فسِرْ معى إلىَ المدينة ، فلعل الله يرزقُكَ بجارية أجملَ منها وأكملَ ، فتنسَى بها تلك الجارية ، وتذْهب عنك ما ألمَّ بك من حزن وألم .

فقال نورُ الدين : يا عمّ ؛ لن أنساها ، ولن أسكُتَ عن طلبها ، وإن سُقيتُ كأس الرّدَى من أجْلِها .

فقال التاجر : وماذا اعتزمتَ أن تفعله ؟

فقال : سأرجعُ إلى مدينة أبيها فى طلبها ، فإما فزت وإما خذلتُ ، ولن أُلقى سلاحى ما دمت قادراً على الجهاد فى عزمٍ وقوةٍ .

فقال التاجرُ : أما سمعتَ المثلَ السائر : ما كلّ مرة تسلَمُ الجرَّة ! ! ولا تنسَ أنهم عرفوك الآن حقّ المعرفة .

فقال نور الدين : وما كان لمؤمن أن يضعُف قلبُه ، ويترك الجهاد فى حياته خشيةَ الخيبة ، وإن أُقتلْ فى مَيْدان العمل فهو خيرٌ من أن أموتَ على سرير الفَشل .

واتفق أن سفينة فى الميناء كانت على أهبةِ السفر إلى مدينة مريم ،

فركب نورُ الدين فيها ، وساقتْها الريحُ تجرى رُخاء إلى حيث يُريدون .

وكانت سفن الفرنجة منتشرةً فى البحر طائفة حارسةٍ ، وما كادت السفينة التى بها نورُ الدين تَسيرُ ثلاثة أيام فى البحر حتى أسرها مركبٌ كبير من مراكب الفرنجة ، وساقها إلى مدينة الملك والد مريم حيث يُذْبح الأسرى ، وكانوا مائة ، فأمر الملك بذبحهم ونورُ الدين من بينهم ، وبدأ السَّيافُ يقَطِّع رقابهم حتى لم يبق إلاَّ نور الدين ، فارتاب الملك فى أمره إذ رآه أشبه الناس بنور الدين ، وسأله قبل أن يقتله : ألَسْتَ نور الدين ؟

فقال : إنى رجل يُسمى إبراهيم .

فقال الملك : أنت نور الدين نفسُه ، وأنت الذى أرسلتك لخدمة الكنيسة .

فقال: لَمْ أكن فى يومٍ ما نور الدين، ولا أعرفُ نور الدين، ولا خدمة الكنيسة؛ ولكنى رجلٌ اسمه إبراهيم .

وبينما هما فى هذه المحادثة إذ حضر الوزير الأعور الأعرج فقال : لقد فرغتُ من بناء القصر ، وأريدُ أن أذبح على بابه ، قرباناً للكنيسة ، عشرة من الأسرى .

فقال الملك : لقد ذبحتهم جميعهم ولم يبق إلاَّ هذا — وأشار إلى نور الدين — فخذه واذبحْهُ إلى أن نَعدَّك بالبقية إذا ما وقعت فى أيدينا ، ولما أخذه ارتاب فى أمره أيضاً ، فسأله عن اسمه ، فقال : اسمى إبراهيم .

فقال الوزير : ولكنك قريب الشبه بنور الدين، وربما كنت نورالدين الذى هرب من الكنيسة .

فقال : لا أعرف نور الدين ، ولا أعرف الكنيسة ، وما وطئت قدماى هذه المدينة إلاّ هذه المرة ، ولكنى رجل يسمى إبراهيم .

فقال الوزير : ما دمتَ مقتولاً فسواء علينا أكنت نور الدين أم كنت غيره ؛ وهَمّ أن يذبحهُ عَلَى باب قصره ، ولكن العمال قالوا له : لم يبقَ فى أيدينا لإتمام العمل إلاّ مدة يومين ، والأحسن أن تنتظر حتى نفرغ ثم تذبح من تشاء ، وربما جاءتك بقية العدد ، فتذبحهم دفعةً واحدة وتُوفى بنذرك مرة واحدة .

فأمر الوزير بحبس هذا الأسير « نور الدين » حتى يفرغ العمال من بقية عملهم .

حُبسَ نور الدين مقيّداً عطشانَ جائعاً ، ورأى أن موتته آتية لا ريب فيها ، فرأى أن يفعَلَ فعلةً تقرِّبُ إليه أجله ، حتى يخلص من هذا العذاب المصبُوب عليه .

وكان للملك حصانان شقيقان ، أحدهما أشهبُ نقى ، ويسمى سابقاً ، والآخر أدهمُ كالليل ويسمى لاحقاً ، وكانت الملوك مشغوفة باقتناء أحدهما حتى جعلوا جائزة مغرية من المال لكل من سرقهما أو سرق أحدهما، وكان قد أُصيب أحد الحصانين بمرضٍ فى عينيه ، وعجز الأطبّاء عن علاجه ، وكان الملك فى غمّ من أجل ذلك الحصان المريض ، فعرض عليه الوزير

الأعور أن يأخذه عنده ليعالجه ، فرضى الملك ونُقِلَ الحصانُ إلى الإصطبل الذى حبس فيه نور الدين .

ولكن الحصان السليم أزعج الناس من الصياح حُزناً على فراق أخيه، فأمر الملك غلمانه أن ينقلوه مع أخيهِ المريض ، وأن يبلغوا الوزير أنه أنعم عليه بهما إكراماً لابنته مريم .

ولما رأى نور الدين الحصان مريضاً بعينيه قال فى نفسهِ : تلك فرصة أخلصُ بها من هذا البلاء ، وذلك أن أدَّعِىَ معرفتى بعلاج الخيل، وأقترح على الوزير أن أقوم بمداواةِ عَيْنَىْ هذا الحصان ، ثم أضَعَ فيهما ما يتلفهما ، فأفتح بذلك باباً للتحدُّث عنِّى ، وربما وصل إلى مريم خبرى ، فتحتال لخلاصى ، وإن لم يكن هذا فالتعجيلُ بقتلى خيرٌ من هذا العذاب الذى آخرته القتل والفَناء .

ولما دخل عليه الوزير قام إليه وقال : ألَا تحبُّ أن أداوِىَ عينَىْ هذا الحصان ؟

فقال : وهل تستطيع شفاءهما ؟

فقال : نعم .

قال الوزير : إذا أنت شفيت عينيه أعتقتك من الذبح ، وجعلتك تتمنَّى عندى ما تشاء .

فقال : مُرْ أن تفَكَّ قيودى حتى أباشر العلاج ، فأمر الوزير وفكت قيوده .

قام نور الدين وأحضر زجاجاً بكراً فسحقهُ ، وجيراً لم يُطفأْ ، وبعضاً من ماء البصل ، وخلطَ كل ذلك بعضَه ببعض ، ووضعهُ فى عينَى الحصان وربطهما وقال فى نفسِه : ستُفقَأُ العينان ، وسيُذاعُ أمرى فى المدينة ، فإما علمت مريم واحتالت لنجاتى ، وإما اغتاظ الملك ووزيرهُ وعجّلا بقتلى ، وعلى كلٍّ حال فقد فعلت هذا وأسلمتُ إلى الله أمرى ، وعلمهُ بحالى يغنى عن سؤالى .

وفى الصباح جاء الوزير الأعورُ ، وفكَّ الرباط عن عينَى الحصـان ، فوجدَها أحْسن من عينى أخيه ، ففرح ونادى :

يا هذا ؟ ما رأيتُ مثلك فى مداواة الخيل ، لقد عجز عن مُداواته كل بيْطريٍّ فى بلادنا ، وقد فرَّحْتنى وأزلْتَ عنا غمًّا كثيراً ، وقد عفوتُ عنك ، وجعلتُكَ ناظرًا على خيلى ، ومسكنك الطبقةُ التى فوق الإصطبل ؛ فشكرهُ نورُ الدين ، وحمد الله كثيراً فى نفسه ، وكان البيتُ الذى بناهُ الوزيرُ لمريمَ به شباك يطل على تلك الطبقة التى سكن فيها نورُ الدين ، وألبسه الوزير حُلَّةً سنيّة ، وجعل له مُرَتباً ونفقة ، وقام نورُ الدين بإدارة شئون الخدم على خير ما ينبغى ، وتولَّى هو رعاية الحصانين ، لما يعلم من محبَّة الوزير لهما.

وكان لهذا الوزير بنت بِكْر ، على جانبٍ عظيم من الُحسن والجمال ، وبمسكنها شباك مُطل على الطبقة التى يسكن فيها نورُ الدين ، وكانت تسمعه كثيراً يغنِّى، فقالت فى نفسها : إن هذا المسلمَ شابٌ جميل فصيح ،

وهو لا شك عاشق مُفارق ، فإن كان قد عشق مثله فى الُحسن والملاحة فحق له أن يُسيل العبرات ، وإن كان قد عشق أقلّ منه جمالاً فقد ضيّع عمرَه فى الحسرات .

وكانت مريم قد نقِلتْ إلى قصرها الجديد أمسِ ذلك اليوم ، وعرفت بنت الوزير منها ضيق صدرها ، فعزمت أن تذهب إليها ، وتحدثها بما سمعت من هذا الغلام الجميل ، الذى نال إعجابها ، وبينما هى تفكر فى ذلك إذ برسل مريم تطلب بنت الوزير لتذهب إليها للحديث والمؤانسة ، فوجدتها فى قصرها الجديد حزينة مكتئبة ، فقالت لها : مالك أيتها الملكة ضيّقة الصدر ، قلقةً مضطربة ؟

فأجابتها : إن المرء لا يملكُ لنفسه نفعاً ولا ضَرًّا ، وسأصبرُ حتى يأذن الله لى بالفرج .

فقالت بنت الوزير : فرّجى عن نفسِك ، وقومى معى إلى شباك القصر ، فإن عندنا فيه شابًّا رشيق القَوام ، حُلوَ المقال ، لم ترَ عينُك أجمل ولا أرقّ منه لفظاً ، ويخيّلُ إلىّ أنه عاشق مُفارق .

فقالت : وكيف عرفت أنه عاشق مفارق ؟

قالت لا يسكت عن قول الشّعر ، والتغنّى به ، ليلَ نهار ؛ وكأنى بالذى يسمعه لا يُحبُّ أن يفارقه .

فقالت مريم فى نفسها مدفوعة بإحساسها ، وإلهامِ شعورها : إن صحّ ما قالته بنت الوزير ، فلا شك فى أنه نورُ الدين .

ثم قامت معها إلى الشباك ، وحدقتْ فيه ببصرها ، فعرفتْ أنه نورُ الدين ، فكتمت مريم أمرها فى صدرها ووقفتْ بُرْهَة تسمعه وهو يغنّى، ثم قالت لبنت الوزير : أشكرُ لك عطفَكِ ومؤانَسَتَكِ ، وما كنت أظُن أنك تعرفين ما بى من قلق وضيق صدر ؛ ورجعت مريم إلى مكانها ، وعادت بنتُ الوزير إلى قصر أبيها ، تزاولُ شغلها فيه ، ثم رجعت مريمُ إلى الشباك وحدها ، لتفرح برؤية نور الدين والاستماع إليه وهو يغنّى . وكذلك أسمعته صوتها ، حتى أيقن أنها جاريته مريم ، وانتظر ما كان يتوقعُه من تدبيرِ حيلة لخلاصها وخلاصه ، ثم قامت مريمُ إلى قرطاسٍ فكتبت فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم

سلامُ الله ورحمته عليك

هذه مَريم الزنارية التى أضناها الشوق إليك ، ترجُو منكَ أن تقوم بعنايةٍ وحذر بما أشير به عليك ، واحذر أن تتكاسل أو تنام .

إذا مضى ثلث الليلة القادمة فجهِّز الفرسين للركوب ، ثم اخرجْ بهما حتى تطلُع من المدينة ، وإذا سألك أحدٌ : إلى أين تذهبُ ؟ فأجِبْه أنك تروضُ الفرسَيْن ، وانتظِرْ فى خارج المدينة حتى أحضُرَ إليك . والحذر الحذر من التكاسُل والنوم ، كتب اللهُ لنا الهرب سالمين من هذه المدينة وأهلها .

جاريتك

مريم الزنارية

ثم وضعتْ الورقةَ المكتوبة فى منديلٍ من الحرير ، وألقتْهُ من الشباكِ أمام نور الدين ، فقرأ الورقة وعرفَ كل شيء .

وفى الموعدِ المضروبِ أسْرَج نور الدين الفرسَيْن ، وخرجَ بهما من المدينة ، وقعد ينتظرُ مريم جاريته .

أما مريمُ فبعدَ أن ألقتْ رسالتَها إلى نور الدين ذهبتْ إلى مكانها المعدّ لها فى قصْرِها ، فوجدت الوزيرَ الأعورَ جالساً على حشيّةٍ من حرير ، متكئاً على مخدّة محشوّةٍ بريش النّعام ، ولا يزال على استحياء أن يُكلّمَها أو يمدّ يده عليها ، فناجتْ مريمُ ربّها بقلبها أن يخلصها من ذلك الوزير الأعرج الأعور .

ثم أقبلتْ هى عليه ، وجلستْ بجواره ، وأخذتْ تلاطفه وتمازحه ، وتقول : ما هذا الإعراضُ ؟ هل هو منك تيهٌ ودلال ؟ ولكن المثل يقول : إذا بار السَّلامُ سلِمَ القُعودُ على القيام ، فإن كنتَ تهجُرُنى ولا تجىء إلىّ فإنى أصِلُك ، وأحبُّ أن أكونَ بين يديك ، أحادثُك وأتمنى رضاك .

فقال الوزير : لكِ الفضلُ كلّه ، يا سيدتى الملكة ، ولستُ إلا خادماً من خدمك ، ولا يمنعنى إلّا حيائى منكِ .

فقالت : دعنا من هذا الكلام ، وأمرت بمجىء بالطعام والشراب ، فوضعتْ فى الحال أمامهما مائدة ، عليها ما لذ وطاب من لحوم وفواكه وحلويات فجعلتْ تأكلُ وتطعم الوزيرَ حتى شبعا ، ثم أخذت تؤاكله وتضاحكه وتمازحه ، ثم غافلته ووضعت قرصاً من البنج فى كأس ، وقدمتها

إليه فشربها ولم يدر ما بها فما كاد ينتهى من شربه حتى فقد وعيه وحسَّه ، ونام نومةً عميقةً هى إلى الموت أقربُ .

قامت مريم بعد ذلك إلى خرْجين ، ووضعت فيهما ما استطاعت حمله من الجواهر واليواقيت ، وشيئاً من الطعام والشراب ، ولبستْ حلّة الحرب ، وتقلدتْ سلاحها ، وأخذت معها حلةً ملوكية وسلاحاً ، لسيِّدِها نور الدين ، وخرجت من قصرها فى قوة بأس ، وشجاعة نفسٍ ، إلى نور الدين حيث ينتظرُها خارج المدينة .

جلس نور الدين ينتظرُ مريم ومقاودُ الحصانين فى يده ، فغلبه النوم ونام .

وكانت ملوك الجزائر قد جعلت لمن يسرق هذين الحصانين — أحدهما أو كليهما — مالاً جَزيلا ، وكان قد اشتهر بسرقة الخيل فى هـذه الأيام عبدٌ أسود ، وطمع فى أن ينال المال الجزيل ويسرق الحصانين ، فاختفى فى تلك المدينة ، وجعلَ يحتالُ لسرقتهما فلم يستطعْ ، وكاد أن ييئس منهما ، وبينما هو سائرٌ خارج المدينة فى تلك الليله المظلمة ، يفكرُ فى وسيلة تمكنُه من السرقة ، إذ حانت منه التفاتةٌ ، فرأى نور الدين نائماً ، وهو يُمسك مقاود الحصانين ، فأسرعَ إليه ونزع المقاودَ من رأسيهما ، وهمّ أن يركب حصاناً ، ويسوقَ الآخرَ أمامه ، وإذا مرْيمُ الزنارية مقبلة ، فوضعت خرجاً على حصان ، ووضعت الثانى على الحصان الآخر ، والعبدُ ساكت لم يتكلَّم ، ثم قالت مريمُ : ما لك ساكتٌ لا تتكلم يا نور الدين ؟

فأجابها العبد غاضباً : ماذا تقول أيها الفارس ؟ فعرفتْ من لغته أنه بربرى ، وحدقت ببصرها فى وجهه ، فوجدت مشافره غليظة تكاد تملأ صفحته ، فاغتاظتْ وقالت :

منْ تكون يا شُيخ بنى حام ؟

فقال : يا ابن اللئام ، أنا همام ، مزْعجُ القعود والقيام ، وسارق الخيل والناس نيام .

فجردت سيفها من غمده ، وعاجلته بضربة فى عنقه ، فصلتْ رأسه عن جسده ، ثم أخذتْ تبحثُ عن سيدها نور الدين فوجدتُه غارقاً فى نومه ، والمقاود لا تزال فى يده ، فأيقظته مرعوباً ، ووضعت المقاود فى الحصانين ، وأركبته حصانا وركبت هى الحصان الآخر ، وجدًّا فى السير ساعةً من الزمان ، وهما لا يتكلمان ، والخوفُ يملأُ من نفسه كل مكان ، ثم أقبلتْ عليه قائلة : أما حذرتك من النوم ؟!

فقال : كنتُ منهُ فى حذرٍ ، ولا أدرى كيفَ غَلبنى ؟ وهلْ حصلَ شىء ؟ فأخبرته بما كان من أمْرِ العبد همَّام .

فقال : الحمدُ لله الذى نجانا من الظلْم وأهله .

واستمرا سائرين حتى أشرقت شمسُ الضّحا ، وكانا قد وصلا إلى مَرْج واسع ، مخضر الجوانب ، تمرح غِزلانه ، وتغرد أطيارُه ، وقد أثمرتْ أشجاره ، وفاحت بالعبير أزهارُه ، وسالَت جداوله وأنهاره ، فنزلا فيه ليستريحا ، وأطلقاَ الحصانين يأكلان من هذا المرج ماطاب لهما ويشربان ،

وجلسا يأكلان ويتحدثان ، فما لبثا أن رأيا غبارا يقرُبُ منهما شيئا فشيئا ، وكان سببه أن الملك ذهبَ حسبَ العرف والعادة إلى ابنتِهِ فى صبيحة الليلة التى دخل بها زوجُها فيها ، ومعه كثيرٌ من الهدايا لها ولغلمانها فى قصرها ، فوجد الوزير ملقى على الأرض ، يحسبهُ الرائى ميتا وما هو بميت، ولـكنهُ من أثر البنج فى غيبوبةٍ عميقة ، فاغتمّ الملكُ ، وزاده غمًّا على غمه أنه لم يجدْ ابنته ، فأمر بإحضار الماء الساخن والخلّ البكر والكندر ، وخلط بعضها ببعض ، ثم سقاهُ من هذا الخليط مقدار فنجان ، وأنشقه منه ، فتثاءبَ الوزير ، وألقى ما كان فى جوفه من البنج فأفاق ، ثم سأله عن ابنته فقال :

لا علم لى بها ، إلا أنّها سقتْنى قدحا من الماء ، فلم أنتبه بعدَها إلا أمامك الآن ، فاغتاظ الملك ، ونزع سيفه من غمده ، وضرب به الوزير فى رأسه ، فمات لساعته ، ثم نادى الغلمانَ والخدم ، وطلب منهم الحصانين ، فقالوا :

فقدناهما الليلة ، كما فقدنا كبيرنا معهما، ولا نعلم شيئا من ذلك، إلا أننا أصبحنا فوجدنا أبواب القصر مفتوحة ، فقال :

إنى على يقين أن الحصانيْنِ ما أخذهما إلا ابنتى والأسيرُ الذى كان يخدمُ الكنيسة فى المرة الأولى ، وقد عرفتهُ وأردْتُ قتله ، ولم يخلّصْهُ منى إلا ذلك الوزير الأعورُ ، وقد لقى منى جزاءه ، ثم نادى أولادهَ الثلاثة ، وكان لهم من الشجاعة والفروسية حظٌّ عظيم، فأمرهم أن يركبوا فى جنودهم ،

وركب هو معهم ، وساروا فى الطريق الذى ظنوا أن الأسير ومريم ابنته سارا فيه ، حتى طلعوا بغبارهم عليهما ، وهما يستريحان فى واديهما .

عرفت ذلك مريم ساعة أن رأت الغُبار يدنو منها شيئا فشيئا ، فلبست عُدة قتالها ، وركبتْ جوادها ، واستعدت لملاقاتهم ، وقالت لنور الدين :

كيف حالك فى القتال ؟

فقال : لا ثبات لى .

فابتسمت وقالت : أنا أكفيك شرهم وإن كانوا عدد الرمل ، فاركبْ أنتَ جوادك ، وكُن دائما خلفَ ظهرى ، وإذا انهزمنا فأطلق العنان لجوادك ، فلا يلحقه لاحق ، واحذرْ أن تقع وهو يجرى .

ولما رآها الملكُ وعرفها نادى ابنه الأكبر ، وقال : هذه أختك قد برزت لقتالنا ، فابرز إليها ، فإن ظفرت بها فارجع بها أسيرة ، وإلا فاقتلها ومثل بها ، فبرز إليها أخوها الأكبر وقال :

إن لم ترجعِى وتسلمى نفسك فسأقتلك بسيفى هذا .

فضحكتْ مريم غير عابئة وقالت : إنك تطلب منى محالا ، فإنى لن أرجع إليكم مادمتم تضطهدوننى فى حريتى ، وسأسقيكَ بسيفى هذا كأس الردى . فغضب أخُوها وحمل عليها فحملت عليه ، ولم يُفلت من يدها إلا مَقتولا ، ثم نادت فطلبت المبارزة مِمن يحبُّ أن يلقى حتفه ، ويسفك دمُه .

فحزن الملك لموت ابنه الأكبر ونادى ابنه الأوسط أن يُعجل بقتل أخته ، ويأخذ بثار أخيه .

فقال : سأجعلها طعاماً للوحوش بعد قليل .

وبرز لقتالها ، فاستدرجته حتى طَمع فيها ، ثم حملَتْ عليه حملة عنيفة أحس عُنقها وشدتها ، وحاول الهرب منها فلم يستطع ، ورمته بضربة قوية أردته قتيلا .

ثم جالتْ جوله الفائز المنتصر قائلة : أين فرسانكم وأبطالكم ؟ أين وزيركم الأعور الأعرج ؟

فالتهب صدر أبيها غيظا ، وطلب إلى ابنه الأصغر أن يبرز إليها ويأخذ بثأر أخويه منها ، فلما كان بين يديها قالت : يا عدو الله وعدو نفسك ، جئت مختارا لأسقيك كأس الردى ، وداورته مداورة الفارس الماهر ، وضربته بسيفها ضربة كان على أثرها من الهالكين ، فوقع الرعب منها فى قلوب البطارقة والفرسان ، وقالوا : لا طاقة لنا بقتالها ، وولوا أدبارهم هاربين .

فأطرق أبوها خيبةً وفشلا وقال : إن بارزتُها كان مصيرى معها مصيرَ أولادى ، وليس لى إلا الهربُ مع جنودى ، وأرخى العنان لفرسه ، ورجَع خائباً مدحوراً ، فلما كان فى قصره ، جمع كبراء دولته ، وحكى لهم ما فعلتْهُ ابنتُه ، فأشاروا عليه أن يكتب إلى خليفة المسلمين ، ويحكى له قصتها ، فكتب إليه كتاباً جاء فيه :

السلام على أمير المؤمنين ، إن لى بنتاً اسمُها مريم ، أفسدها علينا أسيرٌ من أسرى المسلمين ، فتركت دين آبائها وأجدادها ، واعتنقت دين الإسلام ،



وخرج بها إلى بلاده ، وهو يدعى نور الدين على بن تاج الدين التاجر المصرى ، فمن فضل مولانا أمير المؤمنين أن يأمر بالقبض عليها ، وإرسالها إلينا فى صحبة رسول أمين ، وسنجعل لكم فى نظير هذا نصف مدينةٍ من مدننا الكبرى ، يُحْملُ لكم خراجُها ، وتبنون المساجد فيها .

ثم ختم الكتاب ووقع عليه كُبراء دولته ، وأرسل به أحد وزرائهِ إلى مدينة بغداد ليناوله بيده أمير المؤمنين ، ووَعده إن جاء بها أعطاه إقطاع أميرين ، ومنحهُ من الهدايا أعظمها وأغلاها .

(٨)

سافر الوزير ، وجعل يقطع الأودية والقِفارَ حتى وصل إلى مدينة بغداد وسأل عن دار الخلافة فصحبه أحد الناس إليها ، فوجدها عالية البنيان ، ممدودة النواحى ، تبدو عليها أمارات العظمة والجلال ، تزينُها حديقة غناء تحيط بها إحاطة الهالة بالقمر ، وانتشر فيها الخدم والغلمان هنا وهناك ، فاستأذن على الخليفة ، وهو من هيبة الدار وجلالها فى غمرة ، فأُذِن له ، فوجد الخليفة جالساً فى مقصورة واسعة ، مفروشة بالبُسط الحريرية ، وصفت فيها الكراسى المطعمة بالفضة ، وزينت نوافذها بستائر مزركشة ، وتدلّتْ القناديل من سقفها ، كأنها نجومُ السماء ، وأمامه منضدة من العاج المرصّع بالذهب والجوهر ، ومن حوله وزراؤه وحاشيتُه ، فسَلّم وحيّا فى أدب واحترام ، وقال :

أنا وَزير ملك الفرنجة ، ورسوله إلى مولانا أمير المؤمنين ، وناوله ما معه من الهدايا الجوهرية ، وكتاب ملكه ، فلما قرأه أجْلسه ، وأمَرَ بإكرامه ، تعظيما لوفادته وتكريمًا ، كما أمَرَ وزرَاءه أن يرسلوا إلى حكام الأقاليم بإحضار مريم ونور الدين إليه وأن يُبَيِّنُوا لهم أوصافهما حتى يمكنهم العثور عليهما ، وأمر أن يُقيمَ الوزيرُ مكرمًا فى بيت الضيافة ، حتى تمضى المدةُ التى ينتظر أن يُعثر عليهما فيها .

واتفق أن وَصلَ أمر الخليفة إلى حاكم الشام قبل وصول نور الدين وجاريته إلى دمشق بليلة ، فعرفهما العَسَسُ وقبض عليهما وقتَ وصولهما وسألوهما عن أنفسهما ، فحكى نور الدين القصة كما هى ؛ وفرح حاكم دمشق بالعثور عليهما ، وبعثهما إلى الخليفة فى حراسة جماعةٍ من جنوده .

ولما كانا بين يدى الخليفة ووزرائه ورجال أمرِه ونهيه فى مقصورته ، أحضر رسول ملك الفرنجة ، وكان الخليفةُ قد أُعجب بما لمريم ونور الدين من فصاحة ولباقة ، وبما فيهما من إشراق وإبداع .

سلمت مريم على الخليفة ، وحيَّته تحية رشيدة قيمة ، ودعت له بالعز الدائم ، والسلطان القاهر ، الذى يعتز به الدين ، وتعلو به كلمة المسلمين — وكان ذلك فى لغةٍ عربيةٍ فصيحة ، وقولٍ عذبٍ مبين، وقلب ثابت ، ونفسٍ مطمئنة — فزاد إعجاب الخليفة بها ، وعظمَ إقباله عليها ، واهتمامه بأمرها ، وسألها : هل أنتِ مريم الزنارية بنت ملك الفرنجة ؟

فقالت : نعم يا أمير المؤمنين ، وإمام المسلمين ، وعميد الموحدين ،

ومَعْصِمَ الدين ، وابنَ عم سيد المرسلين .

فنشط عجبه وألح عليه الاهتمام بها ، والتفت إلى نور الدين سائلاً :

وهل أنت نور الدين على بن تاج الدين التاجر المصرى ؟

فقال : نعم يا أمير المؤمنين ، وملاذ المظلومين ، وحامى الإسلام والمسلمين .

فعجب الخليفة أيضاً ، أن رآه مثلها فصاحةً ، وسرعة فهم وإجابة .

وقال : وكيف أخذت هذه الفتاة من أبيها ، وهربت بها ؟!

فجعل يقص عليه ما جرى لهما فى عبارات جذابة ساحرة ، حتى لم يُبق منه شيئاً .

فطرب الخليفةُ وعجب وقال : ما أشدَّ ما تقاسيه الرجال !!

ثم قال يا مريم إن والدك كتب إلينا أن نرسلك إليه ، فماذا تقولين ؟

فقالت : يا أمير المؤمنين ، أسبغ الله عليك النِّعَم ، وعَصَمَكَ من البؤس والنّقم ، أنت خليفةُ اللهِ فى أرضه ، والقائم على شريعته وسنّة نبيّه ، لقد دخلتُ فى دين اللهِ راضيةً مختارة ، أعبد الله تعالى وأُوَحدُه ، وأسجدُ إليه خاشعةً مؤمنة ، فهل ترضى يا أمير المؤمنين أن تسمع كلام أعدائك ، وتُرسلنى مؤمنة بالله ورسوله إلى بلاد لا تدين بدينك ؟ إنك إن فعلت هذا فإنى مُتمسكة بعنقك يوم العرض على الله وَشاَكيتُك إلى ابن عمك رسول الله ، يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون إلّا من أتى الله بقلبٍ سليم .

فقال أمير المؤمنين : يا مريم ، معاذ الله أن أفعل هذا أبداً !! فلن

أَرُدُّ امرأة مسلمة إلى بلاد تُغلب على أمرها فيها ، وتُفْتَنُ في دينها .

ثم قال: لن أفرّط فيك ولو ملئت لى الأرضُ ذهباً ، فاطمئنى ولا تخافى، وهل رضيت أن يكون نور الدين لك زوجاً ؟ فقالت : كيفَ لا أرضى وهو وليُّ نعمتى ، وسبب سعادتى ، وقد ألقى بنفسه إلى المخاطر من أجلى غير مرة ، ولا أزال غارقةً فى بحر إحسانِهِ وفضله .

فزوجه إياها أمير المؤمنين بعد أن أعتقها ، فى محضرٍ من القضاة والوزراء والكبراء ، ثم التفت إلى وزير الفرنجة قائلاً :

هل سمعْتَ قول مريم ؛ وعرفتَ ما حكمتُ به فى أمرها ؟ فارجعْ إلى مَلِكِكَ ، واقصص عليه ما سمعت .

فخرج الوزير غضبان آسفاً ، خائفاً يترقبُ .

وأمر الخليفة أن تقيم مريم وزوجها فى بيتٍ خاص ، وأن تجرى عليهما المرتّباتُ الشهْرية ليعيشا فى أمن ورخاء وسعة ونعمة .



كيد النساء وكيد الرجال

(١)

كان فيما سلفَ من الزمانِ ملكٌ عزيزُ الجند واسعُ الملك عظيمُ الجاه، بلغَ من الكبَر عتياً ولم يعقّبْ، وعظم فى نفسه أن يموت وليس له ولد يرثُهُ فى ماله وملكه، فاتقى الله فى السرّ والعلن، وأكثرَ من فعل الخير والتصدُّق على الفقراء والمساكين، وسهر على مصالح رعيَّتِهِ، وساسَهم سياسةً عادلةً مُريحةً، وجعل يدعو ربهُ قائلاً :

اللهمَّ قد وعدت ووعدكَ الحقُّ، فقلتَ فى كتابك الكريم : « وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبْ » ، فارزقنى ولداً

صالحاً وأنت خيرُ الرازقين . فاستجاب اللهُ دعاءهُ ، ورزقهُ على الكبر ولداً أجمل خلقهُ ، وأبدعَ تصويرهُ ؛ فأحسن تربيته ، وعلمه الأدبَ والحكمة والعلم والفروسية ، حتى فاقَ غيرهُ ، واشتهر بالذكاء والخبرةِ وسعةِ المعرفة .

وكان عندَ هذا الملكِ حكيم يسمى السندباد ، فنظر ذاتَ ليلة فى النجوم ، ليعرفَ شيئاً عن حياة ابن الملك ، على حسبِ عادة الحكماء فى الرجم بالغيب والتنبُّؤ بالمستقبل ، وبعد أن أتمَّ الحكيم نظرتهُ ذهبَ إلى الملكِ وقال لهُ :

نظرتُ فى النجوم فعرفتُ أنَّ ابنك ستمضى عليه الأيام السبعةُ القادمة ، ولكنهُ إن تكلم فيها بكلمةٍ معينةٍ كانت سبباً فى هلاكه ؛ فتحيَّر الملك واضطرب وقال للحكيم :

وماذا ترى حتى نحولَ بينه وبين تلك الكلمة التى يلقى بها حتفهُ ؟

فقال الحكيم :

أرى أن تحجزه فى مكانٍ لا يسمعُ فيه إلا الغناء وآلات الطربِ ، حتى تنقضى الأيام السبعةُ .

فأمر أن تحضر إليه جارية من جواريه ، فجاءته جاريةٌ بديعة الحسن باهرةُ الجمالِ .

وقال لها : رغبتُ فى أن يقيم ابنى عندك فى قصر الجوارى سبعة أيام كاملة ، فخذيه معك من الآن ، ولا تسمحى له بمغادرة القصر لحظة واحدة ،

حتى تنتهى الأيام السبعة . وكان فى ذلك القصر أربعون حجرةً ، وفى كل حجرةٍ عشر جوار حسان ، ومع كل جارية آلةٌ من آلاتِ الطرب ، إذا ضربت عليها بيدها رقصتْ لها الأشجار والأبنية ؛ يحيط بهذا القصر حديقة غناء ، كثيرةُ الأشجار والأزهار ، تجرى من تحتها الأنهار .

أخذت الجارية ابن الملك معها فرحة به لأنها كانت تحبه ، وبعد ليلة من مقامه عندها بدا لهُ منها ما أنكره وأغضبهُ ، إذ كاشفته بحبها ، وأرادته لنفسها ، فأنذرها ، أنهُ مبلِّغ والدهُ بعد خروجه ما قالت ورغبت ، ولا جزاء لها عنده إلَّا القتل ، ليطهر هذا القصر من ذاتها ، ولتكون عبرةً لمثيلاتها .

خافت الجارية على نفسها من الملك وتوقعت أن يستمع لقول ابنه فيها ، فعزمت أن تكيده ، وأن تتغدى به قبل أن يتعشى بها ، وذهبت إلى الملك باكية ، فظنَّ شرًّا أصاب ابنه وسألها عنه ، فقالت :

أنقذنى من ابنك يا سيدى ، فقد أراد بى السُّوء ، وأنذرنى قتلا عاجلاً إن لم أُطاوعْهُ ؛ فثارتْ ثائرة الغضبِ الأليم فى نفسه ، حتى أغلقَ باب الصَّواب فى وجْهه ، وقال على الفور لجاريته :

ارجعى إلى قصركِ آمنةً ، ولا بدَّ من قتله ، فإنِّى فى غِنى عن ذرِّيةٍ تنتهك الحرمات ، وتجترحُ فى قصرى السَّيِّئاتِ .

ثم دعا إليه وزراءهُ ، وأخبرهم ما كان من ابنه ، وأمرهم أن ينصرفوا ليقتلوهُ ليُطهِّرَ القصر من عبثهِ ، فليس من التقوى فى شىء أن تُذْبح

الفضيلة على فراش من حنان الأبوة .

وقد قال الله تعالى لنوح عليه السلام فى ابنه وقد عصاهُ :

« يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّى أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الجَاهِلِينَ »

انصرف الوُزراء واجتمعوا فى مكانهم يتشاورون فيما يفعلون .

فقال أحدهم : إن الملك أمرنا بقتل ابنه فى ثورة بالغة من غضبه ، فإذا هدأت ثورته تغير رأيه فى ابنه ، وندم على قتله ، وحملنا تبعة التعجيل به ،

وقال آخر : ومن ينجينا من الملك إن بان له خطؤهُ فى حكمه وندم على قتله بعد أن وهبه الله له على اليأس والكبر ؟

وقال آخر : لا يُعْجِزُنا تدبير حيلة نحمى بها ابن الملك من كَيد هذه الجارية ، ولا ينبغى أن نكون فى يدها أداة لِقتل نفس حرم الله قتلها إلا بالحق .

وقال الوزير الأول : وَجب علينا حينئذ أن يُحاول كل منا إرجاع الملك عَن حُكمه ، وإبطال مادبرته الجارية من النكاية بابنه ، وسأبدأ بمحاولتى فى ذلك غداً عند الملك ، ثم انفضّ مجلسهم وهم متفقون على هذا الرأى .

ذهب الوزير الأول إلى الملك واستأذنه أن يتحدث إليه فى شأن ابنه فأذن له ، فقال الوزير :

لو أن لك مائة ولدٍ ما كان لك أن تأمر بقتل واحدٍ منهم لِقول جارية لم يتبين صدقها من كذبها ، فكيف طاوعتك نفسك عَلَى قتل ابنك الواحد

الذى رُزِقتَهُ عَلَى يأس وكبر ، لأن جاريةً رمته بمحاولته الخطيئة ، وقد تكون الجارية فى ذلك واشية كاذبةٍ ، وأرادت أن تكيد لابنك لأمر فى نفسها ، وما أكثر كيد النساء ، وما أخطره فى بعض المواقف ، وما أجمله فى بعضها الآخر ؟ ! ! وسأقص عَلَى الملك شيئا من ذلك إنْ أذن لى .

فقال الملك : قل ما شئت .

فقال الوزير :

كان ملك مغرماً بالنساء والقرب منهن ، فرأى جارية فى بيت من بيوت مدينته ، أعجبه حُسنها وأغرم بها ، فسأل عن صاحب هذا البيت فقيل : إنه لوزيرك فلان ، فدعا الوزير إليه وكلفهُ عملا خارجَ المدينة ، يستغرقُ منْهُ يومين أو ثلاثة ، وانتهزَ الملك فرصة غيبته ، وذهبَ إلى الجارية التى أعجبتهُ فى بيته .

فلما رأته عَرفَتْهُ ورحبتْ به واستقبلتهُ استقبالاً يليقُ به ، فزاد ذلك اللقاء الكريم رغبته فيها ؛ ثم سألتهُ فى أدبٍ واحترام :

لِمَ هذا القدومُ الميمون أيها الملك العظيم ؟ فقال :

رأيتك فأحببتك ، وجئت لأطْفِئَ لهيب الشوقِ إليك بالقرب منك .

فقالتْ :

تلك مِنّةٌ كبرى ؛ وهذا حظٌّ عظيم ؛ أَنْ أحلَّ فى قلب الملك هذا المحل الكريم ، ولهذا فأنتَ ضيفى اليوم ، وليأذن لى الملك أَنْ أقومَ بإعداد

الغَداء ، ليكون بعد أنْ يَطعمهُ فى حلٍّ مما يشاء .

فأذن لها والفرحُ بها يُضيء صَدْرَهُ ، ثم أَحضرتْ إليه كتاباً وقالت :

أَرْجو أن يتسلَّى سيدى بالقراءة فى هذا الكتاب حتى أَفْرُغَ منْ إعْداد الطعام ، فقال لها :

ذلك منك حسنٌ وجميل . وجعلَ يقرأ الكتابَ فإذا كلُّه زَجْرٌ عن الرَّذائل وَنهى عنها ، وترغيبٌ فى الفضائل وحثٌّ عليها ، فتضاءلت كبرياؤه ، وفَتَر ثائر الهوى فى نفسه ، وزاد إقبالاً على قِراءةِ الكتاب حتى دُعى إلى الجلوس على المائدة ، فوجد تسعين صَحْفة مملوءة بالطعام ، فجعل يأكلُ من هذه ومن تلك ومن هذه ومن تلك ، ثم قال للجارية فى عجبٍ ودهشة : أَرى الطَّعام مختلفاً ولكن طعمه واحد ، فكيف كان ذلك ؟

فقالت : أكرم الله الملك وحفظه ، ذلك مثل ضربتهُ للاعتبار والعظة .

فقال : أبينى عن مُرادِك . فقالتْ : أَصلح الله أمر الملك ، إن فى قَصرك تسعين جارية مختلفة فى القَوام والجمال ، متباينة فى التأثير على النفسِ ، واستمالة القلب إليهن ، ولكن الغايةَ واحدة ، لا تختلف فى جارية عنْ أُخرى . فخجل الملك وخرج دون أَن يمسها بسوء وذهب إلى قصره ، وقد نسى عندها خاتَمه تحتَ الوِسادة ، وهى لا تعرفُ من أَمر الخاتم شيئاً .

وبينما هو جالس فى قصره جاءه الوزيرُ صاحب الجارية ، وبلَّغه ما فعله فى غيبته ، ثم حيَّاهُ وانصرفَ إلى منزله .

لقى الوزيرُ خاتم الملك تحت الوسادةِ ، فاغْتاظ وكظم غيظه فى نفسه ،

وحفِظ الخاتمَ عنده ، واختصم الجارية سنةً كاملة ، وهى لا تعرفُ سبباً لاعتزالها وغضبه .

فأرسلت الجارية إلى أبيها ، وقصت عليه أمر الوزير معها ، وهجرَهُ إيّاها سنةً كاملةً دون سبب تعرفهُ ، فقال لها : سأشكوه إلى الملك فى حضرته .

وبينما كان الوزير فى حضرة مليكه دخل والد الجارية بعد أن أذن له الملك ، فقالَ : أيّد الله الملك ، لى روضةٌ أنشأتها بيدى ، وتعهّدتها بالإنفاق والرّعاية حتى طاب جَنَاها ، فأهديتها لوزيرك هذا فلان ، فجعل يأكلُ من ثمارها ما طاب له الأكل ، ثم هَجرها وأهملها حتى ذهب رونقها وحال شكلُها .

ففهم الوزير ما يرمى إليه وقال : أيها الملك ، صدَقَ هذا فى قوله ، وقد كان بِوُدّى أن يدوم أكلى من ثمارها والمحافظة عليها ، ولكنى دخلتُها يوماً فرأيت أثر أسدٍ فيها ، فخفت على نفسى وهجرتها . فأدرك الملك ما يرميان إليه ، وفهم أن الخاتم الذى نسيه تحت الوسادة هو أثر الأسد الذى يقصده الوزير ، فقال : دخلها الأسد وحشاً وخرج منها ملَكاً كريماً ، وما مسَّ أحدًا فيها بسوء ، ولا تزال أطهرَ من ماء السحاب . فارجعْ إليها آمناً مطمئنا ، فقال الوزير : سمعاً وطاعة ، ورجع إلى جاريته فأصلح من شأنها وعاش معها عيشة مرحة هنيئةً ، وقصت عليه ما فعلته بالملك ، وكيف بدّلت من حالهِ ، وأخرجته من بيتها إنساناً فاضلًا طيباً .

قال الوزير الأوّل : وهذا من مكرهنّ الحسن الجميل ، وسأذكر للملك الحكاية الآتية :

كان تاجرٌ كثير الأسفار ، والغيبة عن بيته فى شئون تجارته ، وله زوجةٌ جميلةٌ شديدُ الغَيْرة عليها ، ولأجل أن يطمئن قلبه فى غيبته اشترى طائرًا يخبره بما يجرى فى بيته إذا ما حضر ، وفى مرة من مرات سفره ، أحبت زوجته غلامًا ، وكان يأتى إليها فى بيته وتكرمه ، فلما حضر التاجر قال الطائرُ له :

كان غلام تركى يدخل على زوجتك ، فتفرح بقدومه وتكرمه .

فأخبر زوجتَه بما قال الطائر وهمّ أن يقتلها جزاء خيانتها .

فقالت له : اتق الله فى زوجك ودينك وعقلك ، كيف تظلم نفسك بقتل نفسٍ بريئة ؟ ! وكيف ساغَ لعقلك أن يصدّق طائرًا لا يعى ولا يفهم ، وإن أردت أن أبيّن لك كذب الطائر على الناس وافترائه ، فنَم الليلة عند أحد أصحابك ، ثم اسأله فى الصباح عما جرى ، وانظر ما يقول ، فقال : ذلك رأى جميل ، وإن بان صِدقه فإنى قاتلُكِ . فقالت : وحينئذ لا تكون ظالمًا .

ولما جاء الليل ذهب التاجرُ إلى أحد أصدقائه وبات عنده ، أما زوجتُه فإنها غطت قفص الطائر بقطعة من الجلد ، وجعلت تصبّ الماء فوقها صبًّا يشبه نزول المطر ، ثم جعلت ترسل ضوء المصباح إلى الطائر فى القفص وتخفيه كأنه برق يلمع ، ثم جعلت تُدير الرَّحَى مُحدِثة بها دويًّا يشبه

دويّ الرعد ، ودامت على هذه الحال الليلة إلّا أقلّها .

ولما قدم زوجها فى الصباح قالت له : اِسأل الطائر عما جرى ، فلما سأله قال : ومن كان يستطيع أن يسمع أو يبصر أو يتحرك فى تلك الليلة التى هطل مطرُها ولمع برقها واشتد رعدها ؟ فقال له : ما شعرنا هذه الليلة بمطر ، وما رأينا برقًا ، وما سمعنا رعدًا ، فقال الطائر : ما أخبرتك إلّا بما شاهدتُ وسمعتُ ، فقال : كذبت وافتريت ، وربما كنت تخبرنا بما تراه فى منامك ، ثم ذهب إلى زوجته ليتعذّر لها ويسترضيها ، فقالت : لن أرضى حتى تذبح هذا الطائر الكذاب ، فقام إليه وذبحه .

وبعد بضعة أيام رأى التاجر نفسه الغلامَ التركىَّ خارجًا من بيته ، فذهب إلى زوجته وسألها : هل جاءك أحد هنا ؟ فقالت : لا ، لم يدخل على أحدٌ منذ خرجت إلى أن رجعت بالسلامة .

فندم التاجر على ذبحه الطائر ، وعلم أن زوجته كاذبة خاطئة ، فذبحها وأقسم ألا يتزوج امرأة بعدها ، مخافة أن يقع فى امرأة خائنةٍ مثلها .

قال الوزير الأول للملك : وهذا مثل آخر من كيد النساء ، فلا تعجل بالحكم على ابنك ، فإن العجلة لا تورث إلا ندامةً وحسرةً ؛ فأعرض الملك عن قتل ابنه وسكت .

علمت الجارية بما كان من الوزير الأوّل ، فجاءت مَلِكها فى اليوم التالى وقالتْ :

كيف ضيّعت حَقى وأهملتَ شأنى ؟! ألأنى جارية وخصيمى ابن ملك ؟!

لقد تهامس الناس أنك أبرمت أمرًا ثم نقضه وزيرك الأول ، ،
ماس بكرامتك ، ومُضْعِفٌ طاعة الناس لك ، فطاعة الملوك فى إص
على تنفيذ ما أمروا ، وقد عرفك الناسُ بالعدل ، وأنهم أمام عدلك ـ
فأنصفنى من ابنك ، فقد قيلَ : إنّ رجلا قصّارًا ينظف الثياب
شاطئ دِجلة ، وكان يأخذ ابنه معه إلى دجلة كل يوم ، فيسبح فى
حتى ينتهى أبوه من تنظيف الثياب .

وذات يوم تعب وهو يسبح فغرق ، فنزل أبوه إليه لينقذه ، فتعلق
بعنقه ، وغرقا معاً فى النهر ، وإن لم تنْصفْنى فإنى أخشى عليك وعلى
سوء العاقبة .

فأثّر فى الملك قولُ الجارية وقال: سأقتل ابنى إنصافاً لك. ثم انصر
وحضر إلى الملك الوزيرُ الثانى ، فقال : إن ابنك وارثُ ملكك ،
امتداد لحياتك ، وليس من الهيِّن أن تقتله بوشاية قذفت بها جارية ،
ندمت كما ندم التاجر الذى مكرت به العجوز ، فقال الملك : وكيف
ذلك ؟ فقال الوزير :

كان تاجرٌ أنيقٌ فى ملبسه ومأكله ، سافر إلى بعض البلاد ،
هو يمشى فى سوقها عرضت عليه امرأة عجوزٌ رغيفين ليشتريهما بثمن ز
فاشتراهما ورجع إلى منزله فأكلهما . وكذلك فعل فى الأيام التالية
عشرين يوماً ، ثم غابت العجوز وبحث عنها فلم يجدها ، وذات يوم
سائرًا فى شوارع المدينة فلقيها ، وسلم عليها ثم سألها عن سبب غي

فقالت : « لا تسألوا عن أشياء إن تُبدَ لكم تَسُؤْكُم » ، فقال : لا بد أن تذكرى سبب غيبتك ، فقالت : كُنت أخدمُ إنساناً مريضاً بالحِكَّةِ فى ظهره ، وكان طبيبهُ يأخذ الدقيق ويعجنهُ بالماء والسمن ويضعه على مكان الألم مدّة الليل ، وكنت فى الصباح آخذ هذا الدقيق وأصنع منه الرغيفين ، وأبيعهما فى السوق لك أو لغيرك ، ولما مات ذلك الرجل انقطع عنى الدقيق فانقطعت عن صنع الرغيفين ، فاشمأزَّ التاجر وتقزَّز ، وجعل يتقايأ حتى مرض ومات ، وذلك مما فعلته العجوز من المكيدة للرجال ، ومن الجائز أن تكون الجاريةُ سالكةً سبيل العجوز فى كيدها لابنك الذى يخلفك فى مُلكك . فرجع الملك عن قتله .

وعلمت الجارية ما قاله الوزير الثانى فجاءت إلى الملك وقالت : إن من الوزراء وُزراء سُوءٍ ظاهرهم نصح وهداية ، وباطنهم مكر وغواية ، والواثق بهم كراكب البحر إن سلم من الغرق لم يسلم من المخاوف ، وليكن فيما أقصه عبرة ، فقد كان لملك من الملوك ولدٌ يحبه ويكرمه أكثر مما يحب ويكرم بقية أولاده ، فطلب إلى أبيه أن يخرج للصيد والقنص فلبّى رغبته ، وأمر أحد وُزرائه أن يصحبه ويقوم بكل ما يحتاج اليه أيام صيده وقنصهِ .

(٢)

وخرج الوزير فى صحبة ابن الملك ومعه الخدمُ والغلمان وما يحتاجون إليه وساروا حتى كانوا فى أرض عُشبُها كثير ، وماؤها غزير ، والصيدُ

فيها سهل يسير ، فأقاموا فيها أياماً على خير ما يحبون من عيشة هنيئة ، وذات يوم رأى ابن الملك غزالة أعجبته فقال للوزير :

إنى راغبٌ فى صيد هذه الغزالة .

فقال له : اركب جوادك واتبعها فعسى أن تدركها قبل أن تختفى عنك فى الصحْراء .

أرخى ابنُ الملك العنان لجواده من خلفها ، وكان كلما جدَّ فى طلبها أمعنت فى الفرار مسرعةً كأنها الريح ، حتى صعدت فى مكانٍ مرتفع وعْر ، فوقف آسفاً لأنه لم يدركها ، وكانت الشمس قد غربت ، وضرب الظلام قبته على الأفق ، وحاول الرجوع فعميت فى وجهه السُّبل ، وجعل يسير على غير هدًى يخوض بجواده ظلام الليل وسكونه ، ومخاوفه وأخطاره ، حتى طلع عليه الضحا فإذا به أمام مدينة عالية البنيان ، ولكنها خالية من السكان ، لا يُسمع فيها إلاّ نعيق البُوم والغربان ، فوقف حائرًا مدهوشاً من أمر هذه المدينة .

فالتقت نظرة من نظراته بجارية بالغة الُحسن والجمال ، وهى تبكى بجوار جدارٍ من جُدرانها ، فدنا منها وسألها :

مَنْ أنت أيتها الجارية ؟

فأجابت :

أنا بنت التميمةِ ابنة الطباخِ ملك الأرض الشَّهباء ، اختطفنى عفريت من الجن ، وطار بى ، فأصابه شِهابٌ فاحترق ، وسَقَطت ها هنا ، وقد ألح

بى الجوع والعطش حتى يئست من الحيـاة ، فلما رأيتُك تفتّحت أمامى أبواب الأمل فيها .

فأشفق ابن الملك بها وأردفها على جواده ، ووعدها إن رده الله إلى أهله سالماً أن يرجعها مكرَّمةً إلى أبيها وأمّها .

ثم سار يتلمس الفرج من هذا الضِّيق الذى نزل به ، وما كاد يخطو بهما فرسه قليلًا حتى استأذنته أن تنزل لقضاء حاجة بجوار حائط من حيطان المدينة ، فوقف حتى نزلت وتوارت فى الحائط ، وبعـد لحظة رجعت إليه فى أبشع صورة ، فاقشعرَّ بدنهُ ، واضطربت أفكاره ، وتبدّلت حالته ، ثم وثبت على جواده من خلفه ، وقالت :

يا ابن الملك ، مالى أراك فى مخافة غيَّرت حالتك ؟

فقال : تذكرت أمرًا أفزعنى ، وطار من أجله لُبّى .

فقالت : استعِنْ عليه بجيوش أبيك .

فقال : ذلك أمر لا تنالُ منه الجيوش وإن كانت ملء الفضاء .

فقالت : استعن عليه بمال أبيك !

فقال : ذلك أمر لا تسد أطماعه مالٌ وإن كثُر .

فقالت : إن لكم إلهاً يَرَى ولا يُرَى وهو الذى يجعلُ للمتقين من عباده مخرجاً من كل ضيق .

فقال : نعم ، هو إلهنا الذى نعبده ولا نعتمد إلا عليه .

فقالت : ادْعهُ أن ينجيك منّى .

فتوجه ابن الملك بقلبه إلى الله ورفع بصره إلى السماء ، وقال : اللهم إنى استَعَنْت بك على ما أفزعنى ، وألْق الرُّعب فى صدرى ؛ فسقطت على الأرض وقد اشتعلت النار فيها حتى أحرقتها .

فحمد الله تعالى وشكر له فضله ، وما زال سائرًا وهداية الله تحـدوهُ وتقود جواده حتى أشرف على مدينة أبيه .

وما حصل ذلك لابن الملك إلّا برأى وزيره الذى لم يُخْلص له النيَّة ، ولم يُحسن له الطَّوية . وقد ذكرتُ ذلك حتى تكون منهم على حذر ممـا يقولون .

فقال الملك : سمعت قولك وسأقتل ابنى كما قلت .

وجلس الوزير الثالث إلى ملكه وقال : عجبت من أمر هذه الجارية الساعية فى قتل ابن ملـكها وسيِّدها ، فى أمرٍ هيِّن ، وهوَّنه أكثر مما هو هيِّنٌ أنه لم يؤيد بحجة ولا بينة ، وما عرفت أن أهل قريتين أفنى بعضهم بعضًا من أجل نُقطةٍ من عسل .

فقال الملك : وكيف كان ذلك ؟ فقال الوزير :

اعتاد صيادٌ أن يخرج إلى البريَّة للصيد ، فدخل يومًا من أيام صـيده كهفًا فى جبل ، فوجد فيه حُفرة مملوءة عسلًا ، فملأ منه قربةً كانت معهُ وحملها إلى المدينة ومعهُ كلبه ، فوقف أمام دكان لتاجرِ زيت وعرض عليه العسل ليشتريه ، فلما رآهُ أعجبهُ واشتراه ، وسقط بعض العسل من قربه الصياد وهو يصُبُّهُ فى وعاء التاجر ، وكان له قط فجاء إلى العسـل يشمُّهُ ،



فوثَب عليه كلب الصياد، فقتله، فضرب التاجر الكلب ضربةً قضت عليه، فلكزَ الصياد التاجر لكزةً أسقطته قتيلًا، وكان لكلٍّ منهما قرية، فعلِمَ أهل القريتين بما جرى بين الصياد والتاجر، وثارت الفتنة بينهم، فجعلوا يقتتلون حتى فنى منهم خلقٌ كثير، وكان سبب ذلك بعض العسل الذى وقع على الأرض؛ وتلك جاريةٌ أرادت أن تجعل من الحبَّة قبَّة وأن تخلُق من الباطل حقًّا، فلا تطعها ولا تتبع أهواءها.

فقال الملك: لست بقاتله.

تألمت الجارية من رجوع الملك فى قوله فذهبت إليه وقالت: إذا كنت قد أبيت أن تنصرنى فإنَّ لى ربًّا ينصرنى عليك، كما نصر ابن الملك على وزير أبيه.

فقال: وكيف كان ذلك؟

فقالت.

كان لملك من الملوك الأولين ابنٌ واحدٌ وليس له غَيره وكان قرَّة عينه فى دنياه، فلما بلغ رشدهُ زوَّجه من ابنة ملك آخر، وكان لهذه البنت ابن عمٍّ يحبها ويسعى فى زواجه منها، وخطبها فعلًا من أبيها ولكنها أبت أن تتزوَّج من ابن عمها، فغاظه ذلك منها ومن ابن الملك الذى تزوَّجها، ودفعه الغيظ إلى تدبير مكيدة تعكر عليهما صفو حياتهما، إن لم يتمكن من قتل ابن الملك، فعمل على أن يتصل بوزير أبيه، ليساعده فى تدبير مكيدته، فجعل يرسل إليه الهدايا تباعاً حتى تمكَّن من نفسه، وعقد بينه

وبين الوزير صلة صداقة متينة ، جعلته يُفضى إليه بما فى نفسه ، ورجاه فى أن يحتال فى قتل ابن ملكه أو يحول بينه وبين دخوله بابنة عمّه ، فقال الوزير : سأكفيك شر ابن الملك ، فاصبر ولا تَعجَل، وستكون ابنةُ عمك لك دون أحدٍ سواك .

وكان قد بعث الملك ابنه إلى والد الفتاة لإتمام أمر الزواج ، وبعثَ معهُ كثيرًا من الفرسان والهدايا ، وجعله فى رعاية وزيره هذا الخائن الذى رضى أن يبيع نفس ابن ملكه بثمنٍ بخسٍ من متاع الدنيا .

سارَ الوزير فى موكب ابن ملكه ، وفى نفسه من السوء والكيد له ما فيه ، حتى أشرفوا على جبل يعلم الوزير أن به عين ماءٍ تعرف بالزّهراء ، وكان كل من شرب من مائها من الرجال ارتد أنثى ، فأمر أن ينزلوا عند هذا الجبل للراحة ، وبعد قليل من نزولهم أشار الوزير على ابن الملك أن يُريه فى هذا الجبل عيناً جميلة ، وَرغّب ابن الملك فى رؤيتها ، فركبا جواديهما وسارا حتى وصلا إليها ، وهناك نزل ابن الملك عن جواده ، وكان قد أحس عطشاً فشرِب من مائها فإذا به قد تحول إلى أنثى، فصرخ ابن الملك صرخةً عاليةً تنبئ عن ألمٍ عظيم ، ففزع الوزير إليه وقال له : ماذا أصابك ؟ فأخبره بما أصابهُ ، فأظهر الوزير من الكآبة والحزن ما أخفى سريرته ، ودعا الله أن يصرف عنه السوء الذى حلّ به ، وقال : الأمرُ لك فأشرْ علىّ بما تُريد ، فإنى لك خادمٌ مُطيع .

فقال ابن الملك : ارجعْ إلى أبى وأخبره بما أصابنى ، فإنى لن أبرح

هذه العين حتى يكشف الله عني هذا البلاء أو أموتَ ، وكتب الولد إلى أبيه رسالةً شرح له فيها حالتَه، فأخذها الوزير، وعاد مسرعاً إلى أبيه وناوله رسالة ابنه وشرح له ما أصابهُ ، فحزن الملك، واستنجد بالحكماء والمنجّمين فما استطاعوا أن يفعلوا شيئاً ، وأرسل الوزيرُ إلى ابن عمّ الفتاة يُبشرُه بما أصاب ابنَ الملك ففَرِحَ فرحًا عظيماً ، وأشرق في صدرهِ الأمل في الزواج من ابنةِ عمّهِ ، ومنح الوزير هدية قيّمة ، شاكرًا له ما فعله .

أقام ابنُ الملكِ عند تلك العَيْن ، مُتَّجِهاً إلى الله بقلبه ، متوسّلاً إليه أن يدفع عنه ما نزل به من البلاء ، وبينما هو جالس يدعو الله في سرّهِ أن يُخَلِّصَهُ من محنته إذا فارس يبدو عليه أنه من أبناء الملوك يقف بجواره ويسألُهُ :

من الذي جاء بك إلى هذا المكان أيها الغلام؟ فشرح له ابن الملك قصته، وإنّ الحزن يكاد يحبِسُ نفَسه في صدره ، فرثى الفارس لحاله وقال : ما رماك بهذه الداهية إلّا وزيرُ أبيك ، لأن هذه العَيْنَ لا يعلم بها إلا رجلٌ واحد ، قُمْ معي أيها الغلام فأنت ضيفي الليلة ، فقال ابنُ الملك : ومن أنت حتى أنظرَ في مسيري معك ؟ فقال الفارسُ : أنا ابن ملك من ملوك الجان ، وأنت ابنُ ملك من الإنس : فتعال معي ، ولا تهِنْ ولا تحزنْ ، فإن تنفيس هذه الكربة عنك هيِّنٌ عليَّ ، فسار معه إلى منتصف الليل ، ثم قال له ابنُ مَلكِ الجنّ : أتدرى كم قطعنا في سيرنا هذا ؟ فقال : ومن يدريني وأنا مشغول بما أصابني ؟! فقال له : لقد قطعنا مَسير سنة للمسافر المُجدّ ،

فقال ابنُ الملك : وكيف أرجعُ إلى أهلى ؟ ! فقال ابنُ ملك الجنِّ : بعد أن تبرأَ من محنتك فعلىَّ أن أرجعَك إلى أهلك فى لمح البصر ، فلا تُزْعجك هذه الغُرْبةُ البعيدةُ الساحقةُ . فاطمأنَّ ابنُ الملك وحيِيَ ميِّتُ الأمل فى نفسه ، وشكر اللهَ تعالى الذى قيَّض له من يكشف عنه هذا البلاء .

واعترضهما فى طريقهما أرضٌ مخضرَّة ذات أشجار باسقة وأنهار جارية أُقيم فى وسَطها قصرٌ منيفٌ ، تبدو عليه أمارات المُلك الواسع والسُّلطان القاهر ، فلبثا فيه نهارَهما ، ولما جاء الليل ركب ابن ملك الجن جواده ، وركب ابن ملك الإنس معه ، وجدَّ بهم السيرُ فى ظلام الليل حتى طلع الصبحُ ، وكانا قد أشرفا على أرض سوداء كثيرة الأحْجار والصخورِ ، فسأل ابنُ ملك الإنس عنها ، فقال له : هذه أرضٌ يُقال لها الدَّهْماء ، وهى لملك من ملوك الجن يسمَّى ذا الجناحيْن ، ولا يستطيع أحد أن يدخلها إلا بإذنه ، فانتظِرْنى هنا حتى أَستأذنَه وأعود إليك . ثم رجع إليه بعد ساعة ، وسارا فى هذه الأرضِ حتى كانا عند عَيْنٍ من الماء فى جبل أَسوَد ، فأمره ابن ملِك الجنِّ أن ينزل ويشرب من مائها ، فلما شرب رجع ذكرًا كما كان بقُدرة الله تعالى . ففرح فرحاً عظيماً ، وشكر له جميل معروفه وسأله عن هذه العيْن؛ فقال: هذه تسمَّى عَيْن النِّساء، لا تشرب منها امرأة إلا صارت رجلًا ، ثم رجع ابن ملك الجن به إلى أرضه وسأله : هل يحب أن يعود إلى أهله ؛ فأبدى ابن الملك سروره ورغبته فى أن يُعَجِّلَ بالعودة ، فنادَى ابنُ ملك الجن عبدًا من عبيدِه ، يسمَّى راجزًا ، وقال له:

احمل هذا الفتى إلى زوجته وأبيها على أن يصل إليهما قبل الصباح؛ فقال العبد: سمعاً وطاعة، وغاب قليلاً ثم رجع عِفريتاً، فركب ابنُ ملك الإنس على عاتقه وسلم شاكرًا حامدًا، وطار به العِفريت حتى وضعه فوق قصر الملك والد زوجته قبل طلوع الفجر، وقال له: هذا قصر زوجتك الذى أمرت أن أحملك إليه، ثم تركه إلى أرضه راجعاً.

ولما بان ضوء النهار نزل من القصر فلقيَهُ حَمُوهُ الملك وسلَّم عليه وفرح به، وقال له: كيف جئت الليلة؟ إنى أراك آتياً من فوق القصر؛ فقال له: ذلك تقدير العزيز العليم.

أقام الملك الولائم والأفراح، ودخل ابن الملك بزوجته، وبعد سبعة أيام استأذن حماه فى الرحيل هو وزوجتُهُ، فودَّعهما الملك أكرم وداع، واستقبلَهما أبوه أكرم استقبال وأعظَمَهُ.

قالت الجارية:

وكذلك انتصر ابنُ الملك على وزير أبيه الخائن الماكر، وأرجو ألاَّ تسمع قول وزرائك حتى ينصرك الله عليهم، كما أرجو أن تُنصفنى من ابنك، فقال الملك: سأقتله جزاء فعلته.

ثم جاء الملكَ وزيرُه الرابع وقال له: بلغنى أن الجارية لا تزالُ طالبة رأس ابنك، وأرى ألاَّ تعجل بحُكمكَ، فقد تكون الجارية خادعةً غاشَّةً فيصيبك منها ما أصاب الرجل الذى غشَّته زوجته؛ فقال الملك: وكيف كان ذلك؟ فقال الوزير:

كان فارس من حرس الملك يحبُّ امرأةً فبعث إليها غلامَهُ برسالة ، وحينما كان الغلام جالساً معها طرق الباب سيِّدُه الذى أرسله ، فخبأت الغلام فى مكان من البيت وفتحت لسيده الذى يحبها البابَ ثم أغلقته بعد أن دخل ، وبعد لحظة من دخوله طرق الباب زوجُها ، فسألها : من الطَّارقُ ؟ فقالت : إنه زوجى ، فقال لها : وما العمل الآن ؟ فقالت : لا تخف ، وما عليك إلا أن تشهر سيفك ، وتقف فى هذا الدِّهليز ، ثم اشتِمْنى بما تشاء من القولِ غاضباً ثائرًا ، فإذا دخل فاترك المنزل ، ودعنى غير خائف علىَّ ، ففتحت الباب لزوجها ودخل ، وفعل الفارسُ ما أمرته به ثم انصرف ، فسألها زوجها عن هذا فقالت :

ما أجمل هذه الساعة التى أتيتنى فيها ، وَمَا أبركها !! فقد نجَّيت من القتل نفساً مؤمنةً بريئةً ؛ وذلك أنى كنت جالسةً فى بيتى فدخَل على غلامٌ يلهث من التعب ، وقال :

اعْتقينى ياسيدتى ممن يريد قتلى ظلماً ، فخبأته فى الحال فى مكان من البيت ، وإذا بهذا الفارس قد دخل علىّ شاهرًا سيفه ، فطلبه منى فأنكرته ، فأخذ يشتمنى ويُهدِّدُنى ، وما صرفه عنى إلا قدومُك فى هذه الساعة المباركة ، فقال لها : أحسنت صُنعاً ، وجزاكِ اللهُ خيْرًا ، ثم ذهبت مع زوجها إلى مخبَأِ الغُلام ، فقال له الزَّوجُ : اطلع من مخبئك أيها الغلام ، فقد نجاكَ الله من القتل على يدِ زوجتى الصالحة ، فطلعَ الغلام خائفاً ، وجعل الزوجُ يُهَدِّئُ رَوْعه ، ويذهب عنه خَوفه ، وودَّعه إلى سبيله .

قال الوزيرُ : وهذه صورة من صور كيْدِ النساء ، وأخشى أن تكون الجارية قد كادت لابنك لأمر فى نفسها ، ومن الحقّ أن تصبر حتى يتَبيَّنَ الأمر ، ويظهر السِّرُّ ؛ فرجع الملكُ عن قتل ابنه ، متأثراً بما سمعَ مِن وزيره .

جاءت الجارية إلى الملك هذه المرة وفى يدها قدحٌ من السُّمِّ ، وقالت : إمَّا أنصفتنى من ابنِك وإمَّا شرِبْتُ هذا السمَّ وكنت مسئولاً عنى يوم القيامة ، وهؤلاء وُزَراؤُك يتَّهِمُوننى بالمكرِ والخديعةِ وليس فى الدنيا أمكرَ منهمْ ، أمَا سمعت أيها الملكُ حديث الصائغِ والجارية ؟ فقال لها : حدِّثينا بما تعرفينهُ عنهما ، فقالت :

كان صائغٌ مولعاً بالتصوير ، فزار يوماً صديقاً له ، ورأى على جدارِ حجرته صورة لجارية لم ير الراءون أجمل منها ، فقال الصائغ : لقد أبدع المصوِّرُ فى هذه الصورة ، وأعتقدُ أنه ما صورها إلا على مثالِ امرأةٍ جميلةٍ يعرفُها ، فقال : لعله ابتكرها من خياله ، فقال الصائغ : إن كان قد صورها على مثالِ امرأةٍ فإنى أرجو من الله أن يُطيل حياتى حتى أراها ؛ وأين مُصوِّرها ؟ فقال : إنه فى بلد كذا ، فأمر صديقه أن يكتب إليه ليُخْبِرَه عن المرأة التى جعل صورتَهُ على مثالها ، فكتب المصوِّرُ قائلاً :

إنها على مثال جاريةٍ مُغنِّيةٍ لأحد الوزراء فى بلدة من بلاد كشمير بالهند .

أُغرِم الصائغ برؤية الجارية وعقد عزمه أن يُسافر إليها مهما يكن من متاعب السفر ونفقاته ، وكان بعد أيام فى المدينة . ولما استقر مُقامه فيها

ذهب إلى عطّار لبيب فطِن وجلس معه يتحدث إليه ، فسأله عن مَلِكهم، فقال العطارُ: ملكٌ حسنُ السِّيَر سليم الطويةِ ، يُقيم العدل ويحِبُّ الرعية ، ولكنه يبغض السحرة بغضاً شديداً ، وإذا وقع واحدٌ منهم في يده رماه في جُبٍّ خارج المدينة وتركه يموت فيه صبراً . وسأله عن الوزراء فحدثه بمزايا كل منهم ثم سأله عن الجوارى في قصور الملك والوزراء ، فجعل يحدثه عنهن حتى انتهى إلى الحديث عن الجارية المغنِّية التى جاء الصائغُ من أجلها وعرف أنها في بيت الوزير فلان . ثم ودَّعه وانصرف ، وأخذ يفكّر في حيلة للوصول إلى تلك الجارية .

وفى ليلة ممطرة شديدة الرياح ، ذهب الصائغُ إلى بيت الوزير ، وصعد إلى سطحه في سُلَّمٍ من سلالم اللصوص ، ثم نزل في سُلَّمِ القصر فوجد الجوارى نائمات كلٌّ جاريةٍ على سريرها ، ووجد سريراً من المرمر عليه جارية يشع وجهُها نوراً وجمالا وسحراً ، غُطى جِسمُها بسُترةٍ مُحلَّاةٍ بنسيج الذهب ، فقعد عند رأسها ورأى بجوار وِسادَتِها حُقًّا من الفضة فيه حُلِيُّها وعِقْدُها ، فجرح كتف الجارية بسكينٍ كانت معهُ ، فانتبهت خائفةً ولما رأته والسكين في يده خافت أن تصيحَ فيقتلها فسكتت ، وقالت له في همسٍ ضعيف : خُذْ هذا الُحقّ والُحلِيَّ الذى فيه ، وأجرنى من القتل وأجرُكَ عند الله ، فأخذ الُحقّ وانصرف .

وفى الصباح لبس ثيابه وأخذ الُحقّ الذى فيه الحُلِيُّ ، ودخل على ملك المدينة بعد أن أذن له ، فحيَّا وقال :

إننى من خُراسان سمعتُ بحسن سيرتك فجئت مُهاجراً إلى مدينتك ، لِأَنْعمَ بعدلك وكرم سياستك ، ولما وصلت المدينة فى المساء وجدت بابها مُغلقاً ، فنِمتُ خارج المدينة ، وبينما أنا بين النوم واليقظة رأيتُ جاريتين إحداهنَّ راكِبة مكنسة ، والأخرى راكبة مِرْوَحةً ، فظننت أنهما ساحرتان ، ودنت إحداهما منى ورفستنى برجلها ، وأوجَعَتنى بضربة من ذنب ثعلب فى يدها ، فدفعنى الغيظ إلى أنى ضربتها بسكين كانت معى ، فجرحتها فى كتِفِها ، فجرت قدامى هاربة ووقع منها وهى تجرى هذا الحُقُّ بما فيه ، فأَخذْتُهُ وفتحتُهُ فوجدتُ فيهِ هذا الحُلِيَّ النفيس ، وقد جئتُك لِأُعلِمكَ أَمر هاتينِ الساحرتين، ولِأُعطيك الحُقَّ الذى وقع من إحداهما ، إذ ليس لى فيه حاجة لأنى رجل مهاجر ، وقد زهدت فى الدنيا وزينتها ؛ ثم ترك الحُقَّ واستأذن وانصرف .

فتح الملك الحُقَّ وجعل يقلب الحُلِيَّ ويتأمل فيه فوجد عِقداً كان قد أَنعم به الملكُ على الوزير سيِّدِ الجارية التى جاء الصائِغُ من أجلها فدعا الملك هذا الوزير إليه ، ولما حضر بين يديه ناوله العِقد قائلا : أليس هذا العقد عِقدُك الذى أهديته اليك ، فتأَمل فيه الوزير وقال : بلى أيها الملك ، إنه العقد الذى وهبتَهُ لى ، وقد أَهديتُهُ إلى جارية مُغَنِّية عندى ، فقال الملك : علَيَّ بها الساعة ، فلما أَحضرها الوزير أمره الملك أن ينظر فى كتفها ، هل فيها جُرْحٌ أَو لا ؟ فنظر الوزير إلى كتفها وقال : إن فيها جُرْحاً أيها الملك . فقال الملك :

صدق الرجل الزاهد فى قوله عنها إنها ساحرة ، وأمر الملك أن يلقوها فى جُبِّ السحرة ، فأخذها الجُند والأعوان ورموها فى الجُبِّ آخر النهار .

ولما أقبل الليل ذهب الصائغ إلى حارس الجُبِّ وجلس يتحدث معه حتى مضى من الليل ثُلُثُهُ ، وحتى أَنسَ كلٌّ منهما إلى صاحبه ، ثم قال الصائغ : إن الجارية التى ألقيت فى الجُب أمس بريئة مظلومة ، وقصتها كَيْتَ وكيت ، وهذا كيس به ألف دينار ، فخذه وانتفع به ، وأعطنى الجارية أرحل بها إلى بلادى ، وتكون بذلك قد نجيت من القتل نفساً بريئة ، فقال الحارس : على شريطةِ ألاّ تبيت بها فى هذه المدينة وألا نراها فيها من الآن ، فقال : لك ذلك ، وأخذها الصائغ وذهب إلى بلاده ، بتلك الحيلة الشيطانية ، فهل رأيت أيها الملك كيداً أعظم من هذا ؟ ! وغداً أُطالبُك بحقى يوم لا تجزى نفسٌ عن نفسٍ شيئاً والأمرُ يومئذٍ لله ؛ فقال الملك : سأَفِى بحقِّك وأقتُل ابنى ؛ فحَيَّت واستأذنت وانصرفت .

أَقبل الوزير الخامس على الملك وقال :

جئتُ مولاى الآن مُذكِّراً بأن التأنى فى الأُمور لا يُضَيِّعُ على صاحبه غرضاً ، ولكنه يَمنحهُ السلامة ويُجَنِّبُهُ الزَّلَلَ والنَّدامة ، وإن أَنْت عَجِلْتَ وقتلت ابنك ندمت ندم الرجل الذى لم يضحك بقية حياته ، فقال الملك : وما قصته ؟ فقال الوزير :

كان رجل ثرىٌّ يعيش فى نعمةٍ سابغَةٍ من مال وجوار وخدم ، ومات مُخَلِّفاً أموالهُ وماترك إلى ابنه الصغير الذى لم يُعقِب غيره ، ولما بلغ الولدُ

رُشده ، وتولى القيام على ما ورثه أخذ يُبعثره فى وجوه الإنفاق ، حلالها وحرامها ، طيِّبها وخبيثها حتى نفدت الأموال ، وأصبح الغلام فقيراً مُعدماً لا يجد ما يقتات به ، فأخذ يشتغل عند الناس بالأجرة ، يوماً يأخذه هذا ، ويوماً آخر يأخذه ذاك ، وجلس ذات يوم بجانب حائط ينتظر شخصاً يشتغل عنده ، فمرَّ به رجلٌ مُشرِق الوجه حسن الثِّياب فدنا منه وسلم عليه ، فرد عليه السلام ، ثم قال الرجل له : أريد أن أستأجرك فى عمل يسير ، فقال الشَّاب : وما ذاك يا عمِّى ؟

فقال : عندى عشرة شيوخ وليس لنا من يخدمنا ، فهل ترضى أن تقوم بخدمتنا وقضاء حاجاتنا ولك ما يغنيك من الأجر ؟ فقال الشاب : رضيت وبالله العون ، فقال الرجل : ولكن لى شرطاً عليك ، فقال الشاب : وما هو ؟ فقال : أن تكتم أسرارنا ، وإن رأيتنا نبكى فلا تسألنا عن سبب بكائنا ، فقال الشاب : رضيت وَلك ما شَرَطْت ، فقال الرجل : سر معى يا ولدى على بركة الله ؛ فذهب به إلى دار عالية ممتدة الجوانب فسيحة الرِّحاب ، بها حجرات كثيرة ، وقاعات واسعة بكل قاعة فسقية تُغَرِّدُ عليها أنواع الطيور ، فأدخله الرجل فى حجرة فسيحة فُرِشَتْ أرضها بالرّخام المُلوَّن ، ونقش سقفها بطلاء من ماء الذهب الوهَّاج ، وغطِّى رخامُ أرضها بِبُسُطٍ حريرية وَبِرة ، ووجد فيها عشرة شيوخ يلبسون ثياب الحزن ، وقد جلسوا مُتقابلين باكين ، فعجب الشاب وهمَّ أن يسأل عن تلك الحال ، ولكنه تذكر الشرط فسكت .

أعطى الرجل الشاب صُندوقاً به ثلاثُون ألف دينار ، وقال له : أنفق علينا وعليك من هذا المال ، والتزم الأمانَة والصدق فيما تُنفق . فقال الشاب : وعلىَّ عهد الله أن أكون أميناً لا تمتدُ يدى إلى أموالكم هذه إلا بالحقِّ ، والله هُو الوَلِيُّ الحميدُ .

أخذ الشاب يُنفق عليهم ويخدمهم مُدة من الزمان ، ثم جاء أحدهم الموت فجهزوه ودفنوه فى روضةٍ خارج الدار ، وجعل الموت يتخطفهم واحداً بعد واحد حتى بقى منهم ذلك الشيخ الذى استأجر الشاب .

وعاشا معاً مُدة ، ثم مرض الشيخ مرضاً ثقيلاً ، ولما يئس الشاب من حياته جلس إليه وقال :

لقد خدمتكم وأحسنتُ عِشرتكم وأكرَمْت صحبتكُم هذه المدة الطويلة ، وما رضيتُ أنْ أسألكم عن سبب بكائكم ، وليس لى من أسألهُ عما أبكاكم إلا أنت ، وعَزيزٌ عليك أن ترحل إلى رحمة الله ، وتتركنى فى حيرة من أمر هذا البكاء ، فقال الشيخ :

ياولدى : « لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم » . « ولا تقفُ ماليس لك به علمٌ إن السَّمْعَ وَالبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » .

أسألُ الله أن يُنجّيك مما أصابنا ، وإن أردت السّلامة منهُ فلا تفتحْ هذا الباب — وأشار إليه بيده — وإن فتحتَهُ ووقعتَ فيما وقعنا فيه فلا تلومَنَّ إلا نفسك .

ثم اشتدت وَطأة المرض على الشيخ ومات ، فجهزهُ الشابُ ودفنهُ مع أصحابه ، وبقى هو فى الدّار وَحدهُ .

حيّر الباب الشابَّ وشغله ، وأصبح متردداً مُضطربا ، أيفتحُ البابَ أمْ لا يفتحهُ ؟ فصار يُقَدِّم رجْلاً ويؤخرُ أُخرى ؛ ثم غلبته الرغبة فى فتحه ، فقام إليه مُفوِّضاً أمره إلى الله ، وكسر أقفاله ، فانفرج عن دهليز ضيِّق مشى فيه ثلاث ساعات حتى انتهى إلى شاطئ نهر عظيم .

فجعل ينظر ذات اليمين وذات الشمال فلا يجد أحدًا ، فوقف حائرًا مفكرًا ؛ وإذا طائر كبير قد اختطفه وطار به إلى أن ألقاهُ فى جزيرة وسط البحر وتركه . فجلس فيها خائفًا يترقبُ لا يهتدى إلى سبيل ، فلَاح له من بُعد قلع مركب يدنو من جزيرته رويدًا رُوَيْدًا ، فكان مبعثَ أمله ، والرجاء فى نجاته وسلامته .

وحبسَ نظراته عليه حتى رسا على الشاطئ قريباً منه ، فوجده زورقاً كبيراً صنع من العاج والأبنوس ، وصُفِّحَ بالذهب الوهَّاج ، وصنعت مجاذيفه من العود والصندل ، به عشر جَوار أبكار ، يأسرن بجمالهن القلوب والأبصار ، فلما رأينه ذهبن إليه وقبَّلن يديه وقلن له :

أنت الملك العروس . وتقدمت إليه أجملهن ، وألبسته حُلة مُلوكيّة ، ووضعت على رأسه تاجاً مُرَصعاً بالذهب وأنواع اليواقيت ، وأخذته معها إلى الزورق ، فوجده مفروشاً ببسط حريريّة منسقة الألوان ، ثم نشرن القلوع ، وخُضن بزورقهنّ لجج البحر ، والشابُ لا يدرى ، أهو فى يقظة أم فى منام ؟ ! !

قال الشاب : ولما قرب الزورق من الشاطئ رأيته قد امتلأ بجنود لا أكاد أحصيها عدًّا ، فنزلن من الزورق ونزلت معهن ، وقدمن لى خمسة جياد عليهن سروج محلاة بالذهب واللآلئ الثمينة ، فركبتُ جوادًا وانعقدت الرايات والأعلام على رأسى ، وسار الجندُ من حولى حتى أشرفنا عَلَى أرض ذات أشجار وزرع بها قصور شاهقة ، فرأينا جنودًا كثيرة العدد تخرج إلينا فى صفوف منظمة .

وتقدم الملك على جواده فلما دنا منى نزل عن جواده فنزلت أنا عن جوادى وصافحنى وهو فرحٌ مستبشر ، ثم قال لى :

أنت ضيفى الليلة .

وذهبتُ مع الملك إلى قصره ، فأجلسنى عَلَى كرسى من ذهب ، فى حجرة فسيحة مفروشة بالبسط الحريرية ، تدلت من سقفها المموه بالذهب الثريات ، وصُفت فيها مقاعد من العاج والأبنوس ، وجلس الملك بجوارى ، ثم كشف اللثام عن وجهه فإذا هو فتاة من أجمل ما خلق الله وصور ، وقالت .

أنا ملكة هذه الأرض ، وهؤلاء الجنود الذى رأيتهم نساء ، أما الرجال فإنهم يقومون بأعمال الفلاحة والصناعة وعمارة البلاد ، وأما النساء فهن الحكامُ والجنود وأرباب المناصب .

ودخل الوزير فإذا هو عجوز شمطاء ذات أدب وَوَقار ، فقالت لها الملكة :

أحضرى لنا القاضى والشهود ، ثم أمرَت الملكة إلى الشاب قائلة :

أيُرضيكَ أَنْ أكون لك زَوْجة ؟ فقالَ :

ذلك حظٌ عظيم أحمد الله تعالى عليه ، فقالت :

جميع مالِيَ من جُند وسُلطة ومال سيكون لك تَتَصَرّفُ فيه كما تشاء ، ولكن شيئاً واحداً هو الذى أحذرك منه ، هذا الباب المُغْلَق — وأشارت إليه — حذار أن تفتحَه ، وإن أنت فتحته خسرت وندمتَ ، ولا ينفعك حينئذ ندمك وحسرتك .

وحضر القاضى والشهود وأُبرم عقد الزواج وأقام مع زوجته سبعة أعوام فى أرغَد عيش وأطيبه .

تذكر الشاب بعد هذه الأعوام الباب الذى حذرته زوجته من فتحه فنزعت نفسه ، والنفسُ أمّارة بحب الاستطلاع ، فقال لنفسه :

لولا أنه يحوى من النفائس وألوان النعيم أكثر مما شاهدت ما حذرتنى من فتحه ، وقام إليه وفتحه فإذا بالطائر الذى خطفه وحطه فى الجزيرة ، فنظر إليه الطائر وقال :

مرحباً بوجه لا يُفْلحُ أبدًا ، وهجَم عليه وخطفه وطار به ثم حطَّه فى المكانِ الذى كان قد اختطفهُ منهُ ، فلبث فى مكانه هذا على شاطِئ النهر يترقَّب العودة إلى زوجته فلم يجد شيئاً مما فى نفسه ، وسمع صوتاً يقول : هيهات هيهاتَ أن يرجع إليك ما فات .



فرجع إلى دار الشيوخ وعلم أن ذلك سببُ بكائهم ، فجعل يبكى هو أيضاً حتّى مات .

قال الوزيرُ : وهذا مثل سُقته إليك حتى تحجم عن قتل ابنك ضاربا بكلام الجارية عرض الحائط ، وإلا ندمت ندامة الشاب الذى لم يستمع لقول الناصحين .

فجاءت الجارية وقالت : إن وزراءك يرمونني بالكيد والمكر ، وهأنذى أقص عليك حكاية لتعرف منها كيد الرّجال وشدته .

فقال الملك : قصّى ما تشائين .

(٣)

فقالت الجارية .

اشترى أحد الظُرَفاء غلاماً ، ووصى به زوجته خيراً ، وذاتَ يومٍ قال الرجل لزوجته أمام الغلام :

اخرجى غدًا إلى البستان لتروِّحى عن نفسك وتستمتعى بمباهج الطبيعة .

فقالت له : شكراً لك ، وسأخرج غدًا إن شاء الله فى صحبة الغلام .

أعد الغلام فى تلك الليلة طعاماً وفاكهة وماء ، وذهب بذلك كله إلى البستان ، فوضع الطعام تحت شجرة ، والفاكهة تحت شجرة ، والماء تحت شجرة ، ولم يشعر أحدًا بجميع ما فعله .

وفى الصباح ذهبتْ الزوجة والغلامُ ومعهما ما يحتاجان إليه فى ذلك اليوم من طعامٍ وشرابٍ ، فلما دخلا البستان ونعق الغرابُ قال له الغلام : صدقتَ ، فقالت سيدتُهُ : وهل تعرف لغة الطير ؟ وإذا كنت تعرفها فماذا يقول الغرابُ الآن ؟

فقال الغلامُ : إنى أعرف لغة الطير ، وإن الغراب يقول : تحت هذه الشجرة ، وأشار إلى شجرة بعيدة بيده ، طعام فخذوه وكلوه ؛ فذهبت الزوجة إلى الشجرة التى أشار إليها الغلامُ فوجدتْ تحتها طعاماً فأكلاه ، فعرفت أن غلامها يعرف لغة الطير .

ثم سارا فى البستان ، ونعق الغراب فقال الغلام صدقت ، وسألتهُ سيدته عما يقوله هذه المرة فقال : إنه يقول : تحت الشجرة الفلانية فاكهة فخذوها وكلوها ، فذهبت الزوجة إليها فوجدت الفاكهة فأكلاها فزاد تصديقها أن الغلام يعرف لغة الطير .

ثم سارا فى البستان ، ونعق الغرابُ فقال له صدقت ، فسألته عن ذلك فقال :

يقولُ الغراب : تحت الشجرةِ الفلانية ماء فاذهبوا إليه واشربوه .

فذهبا إليها ووجدا الماء وشرباه ، فأيقنتِ الزوجة أن غلامها يعرفُ لغة الطير ، ثم سارا ونعق الغرابُ ، فأخذ الغلامُ حجراً ورماه به فطار .

فقالتْ سيدته : لم ضربته هذه المرة ، وماذا قال :

فقال الغلام : لا أستطيعُ أن أحكى ما قالهُ .

فقالت : قل ولا تخف ، فأبى الغلام أن يقول شيئاً ، فألحت عليه وهو لا يرضى أن يقول شيئاً .

ولما تعبت من الغلام أقسمت عليه أن يقول ، فقال : إنّ الغراب يقول : اقتل سيدكَ وتزوج بسيدتكَ ، فضحكت الزوجة حتى استلقتْ على ظهرها .

وكان سيده قد حضر الآن ورآها على قرب مستلقيةً ، فنادى غلامه وسأله : ما لسيدتك نائمةً ، فأجابه الغلامُ : وقعت من الشجرة ، وكانت قد أشرفتْ على الموت ، ولـكنّ الله نجّاها ، وإن كانت لا تزال تشعرُ ببعضِ الألم فى جسمها ، فسمعتْ الزوجة هذا الـكلامَ فأخذتْ تتألم من ظهرها ومن رجلها ومن يدها ، فأمر الزوجُ والغلام أن يحضر الفرس لزوجته ، فأركبها وأمسك الزوجُ بركاب والغلام بركاب وساروا إلى المنزل والزوجُ يدعو لها بالشفاء العاجل .

قالت الجارية : وتلك صورة من مكر الرجالِ ، فلا ينبغى أن يصرفك وزراؤك عن الأخذ بحقى وإنصافى ؛ فقال لها سأقتله من أجلك . فاستأذنت وانصرفت .

وقال الوزير السادس : أتيتك بحكايةٍ تعرف منها كيف استطاعت امرأةٌ أن تمكر بطائفة من عظماء الدولة ، لتعلم أن الجارية مكرتْ بابنك وأحكمت مكرها ، وستنبئك الأيام صدق ما تقول ؛ فقال الملكُ : إنى مصغٍ إلى قولك فحدثنا بما تريد . فقال الوزيرُ :

كان لبنت من بنات التجار زوج تاجر كثير الأسفار ، وغاب عنها مدة طويلةً في مرة من مرات سفره إلى بلاد بعيدة ، وكان يقوم بخدمتها غلامٌ جميل تحبه حباً جماً ، وفي يوم من الأيام تنازع الغُلام ورجل من أهل المدينة فشكاه الرجل إلى الوالي وسجنهُ ، فلما بلغها نبأ سجنه حزنتْ ولبست أفخر ثيابها وتزينت وذهبت إلى منزل الوالي فوجدته في حجرة الاستقبال ، فسلمت عليه وناولته ورقةً كتبت فيها : إن الغلام . . . الذي سجنته بالأمس برىء مما نُسبَ إليه ، وهو أخي ، وليس عندي من يقومُ بقضاء حاجتي في تلك الأيام التي غابَ عني فيها زوجي ، ولهذا أرجو أن تطلقه من سجنه ؛ فلما قرأها نظر إليها قائلا :

ادخلي منزلي وانتظري حتى أحضر الغلام لتأخذيه .

فقالت : إني غريبة ، ولا أدخل منزل أحد وزوجي غائب عني في بلاد بعيدةٍ .

فقال : إن لم تدخلي منزلي وتنتظري فلن أطلق الغلام من سجنه .

فقالت : إن كان لا بد من ذلك فخير لي ولك أن تحضر إلى منزلي وتستريح فيه النهار كله ، فليس فيه أحد غيري ، فاستبشر وقال : وأين منزلك؟ فقالت : في المكان الفلاني ، واتفق معها على يوم يذهب إليها فيه ، ثم سلمت وخرجت من عنده إلى قاضي المدينة ، فقالت له :

يا سيدي القاضي ، أنصفني وأجرك على الله ، فقال : ومن ظلمك ؟ فقالت : لي أخ سجنه الوالي وهو برىء ، وهو الذي يقوم بخدمتي الآن ،

لأن زوجي غائب فى بلاد بعيدة ، وليس معى أحد غيره ، ورجأنى أن تشفع لى عند الوالى ليطلقه ، فنظر القاضى إليها وأعجبته ،فقال : ادخلى منزلى وانتظرى حتى نرسل إلى الوالى يطلقه .

فقالت : هل هناك ضرورة تستدعى أن أدخل المنزل ؟ فقال : نعم ، وإن لم تدخلى المنزل وتستريحى فيه فاذهبى إلى سبيلك .

فقالت : ما دمت ترى ذلك ضروريا فإنى أستحسن أن تأتينى فى منزلى لتنعم براحتك فيه جميع النهار ، فقال : رأى حسن ، وأين منزلك ؟ فقالت : فى موضع كذا ، ثم اتفقا على اليوم المحدود لزيارته لها وهو نفس اليوم الذى سيحضر فيه الوالى إليها ، ثم سلمت وانصرفت من عنده إلى الوزير فكان شأنها معه كشأنها مع القاضى والوالى ، واتفقت معه على أن يذهب إلى منزلها فى يوم القاضى والوالى ، وانطلقت من منزله إلى قصر الملك ، فلما شكت إليه وعملت بما فى نفسه ، وأنه لم يختلف عما فى نفس الوزير والقاضى والوالى تقدمت بالرجاء إلى ملكها أن يشرفها بزيارته فى بيتها حتى يعلى من شأنها ويرفع قدرها فإنها غريبة فى حاجة إلى عطف المليك ، فقال الملك : ذلك ما نحب أن نسعى إليه ، ووعدها أن يزور بيتها فى اليوم الذى عينته وهو يوم الوالى وأصحابه ، وحيّت مليكها وخرجت شاكرة ، وذهبت إلى نجّارٍ بالمدينة ، وطلبت إليه أن يصنع لها خزانة ذات أربع طبقاتٍ لكل طبقة باب مُستقل لها ، فقال لها : هذه ثمنها أربعة دنانير .

ولما همت بدفعها قال النجار : وإن سمحت السيدة أن أزورها فى بيتها فلن آخذ لها ثمنا !

فقالت : ما دمت راغباً فى زيارتى بمنزلى فاصنعها من خمس طبقاتٍ بأقفالها ، واتفقت معه على أن تكون الزيارة فى اليوم المعلوم ، وهو يوم القاضى وأصحابه ، ففرح بذلك وأمرها أن تجلس عنده حتى ينتهى من صنعها بعد ساعة أو تزيد .

ولما صنعها أخذها الحمّال ومشى معها فوضعها فى حجرة الجلوس من بيتها ، ثم أخذت أربعة أثواب وذهبت إلى الصباغ ، فصبغها وجعل لكل ثوبٍ لونا يخالف الآخر ورجعت إلى منزلها ، وأخذت فى إعداد الطعام والفواكه ، وفرشت حجرة الجلوس بالأبسطة الفاخرة .

ولما جاء اليوم المعلوم لبست أفخر ما عندها من الثياب وتطيبت بأنواعٍ من الطيب الذكىّ الرائحة وجلست تنتظر القادمين .

وطرق الباب ففتحته فإذا القاضى داخل عليها فاستقبلته هشةً بشةً ، وأجلسته فى حجرة الجلوس ، وقالت له : اخلع ثيابك والبس هذا الثوب ، وتلك القلنسوة لتأخذ حظك من الراحة حتى أحضر الطعام والشراب ففعل ما أشارت به عليه . وما لبث أن جلس حتى دُقّ الباب ، فسألها عن الطارق فقالت له : إنه زوجى .

فقال : وماذا تصنعين ؟

فقالت : لا تخف فلن يمكثَ هنا طويلا ، فقم أنت واختبئ فى هذه

الخزانة حتى يخرج إلى سبيله ، فدخل الطابق الأول وأقفلت البـــاب وذهبت إلى باب المنزل وفتحته فوجدت الوالى ، فأخذته إلى حجرة الجلوس ونزعت عنه ثيابه وألبسته ثوباً من عندها وقلنسوة كما فعلت بالقاضى ، ثم طلبت إليه أن يكتب إلى حارس السجن بإطلاق الغلام أخيها حتى تجلس معه مطمئنة وتقضى معـه الوقت فى راحة ومتعة ، فكتب إلى حارسه يقول :

إذا جاءتك رسالتى هذه فأطلق فلان ابن فلان فى الحال ، وإياك أن تراجع حاملها بكلمة واحدة أو تؤخر إطلاقه من السجن دقيقة واحدة ، ثم ختم الرسالة وناولها إياها ، فأخذتها منه شاكرة مبتسمة ، وما كاد يطمئن حتى طرق الباب ، فسألها : من الطارق ؟

فقالت : زوجى ، ثم أدخلته الطابق الثانى من الخزانة وأقفلت الباب عليه ، وانصرفت لتستقبل الطارق ، فكان الوزير ، ففعلت به ما فعلته بالقاضى والوالى ، وأدخلته الطابق الثالث وأقفلت الباب عليه وانفلتت إلى باب المنزل لتستقبل الطارق ، فَقَبَّلَتْ يديه وأجلسته فى صدر المكان من حجرة الجلوس وقالت : شرَّفْتَ الدار أيها الملك العظيم ، بهذا القدوم الميمون ، وتلك خطواتٌ كريمة أعزتنا بها وأكرمتنا ، والله سبحانه وتعالى يجزيك عنَّا خير الجزاء ، ثم عرضت عليه أن يلبث الثوب الذى أعدته نخلع ثيابه ولبسه ، وطرق الباب ، فقال الملك :

من هذا الطارق ؟

فقالت : زوجى ، فقال : سرّحيه بالمعروف وإلّا أودعته السجن .

فقالت : إنه لا يمكث فى المنزل إلّا زمناً يسيرًا ، فإذا اُختبأت فى هذه الخزانة كان أكرم لك وأصونَ لكرامة زوجى .

فطاوعها واختبأ وأغلقت الباب ، ثم فتحت باب البيت واستقبلت النجار وجاءت به إلى الخزانة وقالت : لِمَ عملتها ضيقة ؟

فقال : لا ضيق فيها وما قصّرت فى صنعها .

فقالت : اُدخل هذا الطابق لترى هل يسع مثلك أو لا ؟

فدخل وأغلقت الباب عليه ثم تركتهم وانصرفت إلى حارس السجن فناولته رسالة الوالى ليُطلق الغلام من السجن فلما قرأها أطلقه من فوره وأخبرت الغلام بما فعلت .

فقال : وكيف نعمل الآن .

فقالت : نهرب من هذه المدينة ، ورجعت به إلى البيت ، وأخذت أَمتعتها وحُلَل الوالى والقاضى والوزير والملك ، ونزحت هى والغلام إلى مدينة أُخرى .

أَما الملك ومن معهُ فى الخزانة فقد لبثوا محبوسين يوماً وليلة ، وهم لا يستطيعون أن يفعلوا لأنفسهم شيئاً ، إلّا أَنهم جعلوا يطرقون أَبواب الخزانة الخمسة من داخلها ، وأحسّ الجيران طرقاً فى الدّار . فقالوا : إن صاحبة الدار تركتها ولكنا نسمع طرقاً داخلها ، فدخلوها من سطحها ، وجعلوا يجوسون خلالها ، ولكن طرق المحبوسين فى الخزانة قادهم إلى

مكانها فى حجرة الجلوس ، فلما كانوا أمامها طلب النجار منهم أن يكسروها ليخرج منها . وقص عليهم قصته ، فمنهم من صدَّق ومنهم من كذَّب . وقال من كذّب منهم : إنه عفريتٌ من الجنّ ويَحسن أن تحرق الخزانة حتى يموت هذا العفريت . وخاف المحبوسون أن يحرقوا الخزانة .

فقال القاضى :

لسنا عفاريت ، ولكن المرأة الملعونة مكرت بنا وحبستنا فى هذه الخزانة دون سبب نعرفه ، وما أوقعنا فى يدها إلّا إشفاقنا عليها ، وتصديقنا لقولها ، فقد ادّعت المرأة الماكرة أن زوجها قاتلها الليلة فى هذه الحجرة وأشارت علينا أن نختبئ فى الخزانة لننقذها قبل أن يهم بقتلها ثم نمسكه ونعاقبه ، فافتحوا الأبواب أو اكسروا أقفالها ولا تخافوا .

وقال الباقون ما قاله القاضى ، فكسروا الأقفال وفتحت الأبواب وخرجوا ، وهم يظهرون للجيران الغيظ مما فعلت بهم المرأة ، وإن كان ينظر بعضهم إلى بعض نظرات خزى وخجل ، ثم ذهبوا خفية إلى منازلهم وبحثوا عن المرأة فلم يجدوا لها خبراً .

فانظر أيها الملك ، كيف مكرت المرأة بجماعة من كبار أُولى الأمر وضحكت منهم ثم اختفت ، ويغلب على ظنى أن هذه الجارية ماكرة خادعة ، وإن أنت نفَّذت رأيها بقتل ابنك فلا مردَّ له إذا بان كذبها وكيدها .

فقال الملك : ذلك قول سليم ولن أقتله حتى يتبيَّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر

(٤)

اغتاظت الجارية من الوزراء وجاءت إلى الملك فقالت :

لقد عزَمت على أن أُشعل النار فى جسمى إن لم تنصفنى من ابْنك وتقتله ، وحينئذٍ تأسَفُ أَسَفَ الملِك على حارسة الحمَّام .

فقال لها الملك :

وكيف كان ذلك يا جارية ؟

فقالت : كانت امرأة عجوز عابِدَةٌ تختلف إلى قصر من قصور الملوكِ للتبرُّكِ بها ،وذات يومٍ أعطت جارية من جوارى القصر عِقدًا قيمته ألف دينار ، لتحفظه عندها حتى تخرج العجوز من حمّام القصر ، فوضعته الجارية تحت الوسادة وقامت تُصَلِّى ، وكان بعض العقد ظاهرًا ، فخطفه طائر من طيور القصر ، ووضعَهُ فى كوَّةٍ عالية من القصر ، ولما خرجت العجوز من الحمَّام طلبت من الجارية عِقْدَها فلَمْ تجده تحت الوسادة ، فأخذت تبحث عنه هنا وهناك فلَمْ تجد له أثرًا ، فقالت :

أخذته منك ووضعته تحت الوسادة ، ثم قمتُ إلى الصَّلاة ، وما جاءنى أحدٌ أتهمهُ ، ولا أدرى أين ذهب ؟ فشكت العجوز إلى الملك ، فأمر زوجته أن تعذب الجارية أشد العذاب حتى تعترف ، ولكن الجارية

لم تغير قولها ولم تتهم أحداً ، فأمر بسجنها وتعذيبها فى سجنها .

وذات يوم رأى الطائر ينقر فى حبات العقد فى الكوة التى وضعه فيها ، فأمر جارية أنْ تسرع إلى الكوة وتحضر العقد ، فلما أحضرته أدرك أن الطائر هو الذى خطفه والجارية مشغولة بصلاتها ، وأمر بالإفراج عنها وندم على ما فعله بها من سجن وتعذيب ، وأمر لها بمال لإرضائها فأبت أنْ تأخذ منه شيئاً ، وخرجت وهى تقسم ألّا تدخلَ بيت أحدٍ ، ثم أوت إلى كهف فى جبل وعكفت على عبادة الله حتى ماتت .

وحُكى أن حمامتين ذكراً وأنثى جمعا قمحاً وشعيراً فى عشّهما أيام الشتاء .

ولما جاء الصيف جف الحبُّ فضمرَ ونقص حجمه ، فبان لزوج الحمامة أن الحب قد ضاع منه شىء ، وظن أن زوجته هى التى سرقته أو أكلته ، فأقسمت لزوجها أنها ما سرقت وما أكلت منه شيئاً ، فلم يصدّقها ، وجعل يضربها ويعذبها حتى ماتت .

ولما عادت أيام الشتاء نَدِى الحب فكبر حجمه ورجع إلى ما كان عليه فى أيام الشتاء الأولى ، فأدرك الزوج أنه قتل زوجتهُ ظُلماً ، وندم حيثُ لا يَنفع الندمُ وجعل يبكى عليها حتى ضعفَ ومات .

وأكثر عجباً من هـذا أن ملكاً كانت له بنت تسمى الدّهماء فاقت فى حسنها بنات عصرها ، وأصرتْ على ألّا تتزوجَ إلّا ممن يبارزها ويغلبها ، فإن غلبته أخذت فرسه وسلاحهُ وثيابه وكتبت على جبهته : هذا عتيق

الدمّاء ، بارزها كثيرٌ من أبناء الملوك وهى تغلبهم وتسلبهم وتكتب على جباههم .

بلغ صيتها وشهرتها بالجمال والفروسيه ابنُ ملك من ملوك العجم فرغب فى خطبتها لنفسه ، وأمدهُ أبوه بالأموال والنفائس وسافر إليها . ونزل ضيفاً على أبيها وقدم له هديةً سنيةً . فأقام فى كرم سابغ وحفاوة عظيمة .

ثم أرسل إلى الملك مع وزرائه أنه جاء من بلاده خاطباً ابنته على أن يبارزها ويكون شأنهُ شأن من بارزها من أبناء الملوك الذين خطبوها ، فرضى الملك وابنتهُ ، وحدد اليوم المشهود للمبارزة .

اجتمع القومُ فى ساحة المبارزة فى الوقت المعلوم ، وجال ابن الملك وخطيبتهُ فى المدان جولاتٍ عنيفةً أدهشتْ القوم ونالت إعجابهم .

ولما أحستْ ابنة الملك ضعفها وقعودها عن التغلبِ عليه عمدتْ إلى الحيلة ، فكشفت لثامها عن وجهٍ أضاء جمالهُ ، فشغله النظر إليه والإعجاب عن أنْ يأخذ منها حذره ، وانتهزت ابنةُ الملك منه هذه الفرصة وهجمت عليه ، ورفعته بيدها عن سرجه، وكان بذلك أسيراً مغلوباً ، فأخذتْ جوادهُ وسلاحه وثيابهُ وكتبت على جبهته : هذا أسيرُ الدمّاء .

ثم أخذت سبيلهُ ، فودعَ قصر أبيها معلناً أنه راجعٌ إلى بلاده ما دام قد أخفق فى مبارزته ، ولكنه سكن فى بيتٍ من بيوت المدينة متنكراً ، منتحلا شخصية بستانى يجيد العمل فى البساتين والرياض ، وذهب فى اليوم

التالى إلى رئيس العمال فى حديقة الملك التى تأتى إليها ابنة الملك للاستمتاع بنسيمها وأزهارها وخضرتها .

وكان متنكرًا فى شخصية شيخ عجوز ، فقال له : إنى شيخ كبير قطعت حياتى فى أعمال الفلاحة وتعهد الأشجار وتنسيق البساتين ، وإنى غريب محتاج ، ولى رغبة أن أعمل فى هذه الحديقة بالأجر الذى تقترحه ، فأشفق رئيسُ البستان عليه وقبله ، وأمرهُ أن يحضر متاع بيته إلى الحجرة التى يقيم فيها من حجراتِ البستان مع بقية العمالِ ، وقد فرح به الرئيس لأنهُ وجده مطيعاً مجدًّا على الرغم من شيخوخته .

وذات يومٍ أعلن الخدمُ أن ابنة الملك قادمة لتستريح فى البستان ، فمضى إلى حجرته ، وأحضر بعضاً من الحلىّ ، وجلس بها تحت شجرةٍ ووضعها أمامه ، وأحكم تنكر فى شخصية العجوز ، فبدت عليه رعشة الكبر وضعف الهرم ، فمرت به ابنةُ الملك وجواريها فأعجبها ما أمامهُ من الحلى ، فذهبت إليه وقالت له : لمن هذا الحلى ؟ وماذا تصنع به ؟

فقال : هذا الحلىُّ لى وأريدُ أن أتزوج به واحدةً منكنّ فضحكت ابنةُ الملك ، وقالت : قد زوجتك به هذه الجارية ، فدفعه إليها ، وأخذته الجاريةُ فرحةً به ، وأخذن يتضاحكن من هـذه الحالة ، ثم رجعن إلى بيوتهن .

وفى اليوم التالى حضرتْ ابنةُ الملك وجواريها ، وزوجته جارية أخرى وأخذن الحلى الذى معهُ ، على نحو ما فعلن به فى اليوم الأول . فأعجب

الحلى ابنة الملك وقالت فى نفسها : كنت أنا أحقُّ بهذا الحلى الذى لا أجد مثله فى خزائن أبى .

ثم بكرتْ إلى البستان وحدها ، والتقت بذلك الشيخ وقالت لهُ : هل تحب أن تتزوجنى ؟

فقال : أحب ذلك كثيراً ولك عندى من الحلى أجمل وأغلى ، وأعطاها ما معه .

ثم قال : هل تعرفيننى ؟

فقالت : لا .

فقال : أنا بهرام بنُ الملك الأعجمى ، تحملتُ متاعب السفر وذلّ الغربة والتنكر فى هذه الصورة من أجلك .

فقالت : ولن أفجعك فى أملك ، وأضيع عليك تعب غربتك ، ولكن لا سبيل إلى الزواج منك إلا بالهرب معك والفرار إلى بلادك .

فقال : ذلك علينا يسير .

فقالت : أعدد نفسك للرحيل فى غلس الظلام هذه الليلة .

فقال لها : سمعاً وطاعة وشكراً وحمداً .

وبعد أن هدأ الليل وسكن جاءته بجوادين وما خف حمله من المال ، وانسلَّا من المدينة ، وأخذا يطويان القفار جادين دائبين حتى وصلا إلى مدينة بهرام وهناك تلقاهما أبوه لقاء جميلاً ، وأقام لزواجهما الأفراح ، وأرسل إلى والدها من يخبره أمرها ، ودعاهُ إلى زيارته توثيقاً لرابطة

النسبِ والمصاهرة ، فانظرْ أيها الملكِ كيف مكر ابن الملك حتى خدع ابنة الملكِ وأخذها وهرب . فهل بعد ذلك تسمع قول الوزراء فى جاريتك ؟

فقال لها : سأقتل ابنى .

وفى اليوم السابع جاء الوزيرُ السابع فقال :

لا تزالُ الحوادث ناطقةً بأن للنساء كيداً تعجزُ عنهُ الرجال ، ولا أزال أعتقد أنَّ جاريتك افترت على ابنك الكذب وكادتْ له كيداً أليماً ، فقد بلغنى أن رجلا أعطى زوجته درهما تشترى به أرزًا ، فذهبت إلى التاجر وابتاعت منه الأرز .

ثم قال لها :

إنَّ الأرز لا يطيب أكله إلا بالسكر ، فإن أردت سكراً فادخلى الدكان وخذيهِ .

فلما دخلت أمر خادمه أن يزن لها بدرهم سكراً ، وغمز بعينيه ، ففهم الخادم مراده .

أخذ الخادمُ منها المنديل الذى فيه الأرز وأفرغه ، ووضع فيه تراباً وحجراً وربطه وناولها إياهُ فأخذته وانصرفت وهى تعتقدُ أن فى المنديل أرزاً وسكراً .

ولما دخلت منزلها وضعتْ المنديل أمام زوجها وذهبتْ فأحضرت قدراً ، ووجد زوجها أن المنديل به ترابٌ وحجرٌ .

فقال لها : ما نوينا أن نبنى بيتاً حتى أحضرتِ لنا فى المنديل تراباً



وحجراً ، فنظرت إلى المنديل وعرفت أن الخادم غشها وبدّل بالأرز والسكر تراباً وحجراً .

فقالت : انشغل بالى وذهبتُ لأحضر الغربال فأحضرتُ القدر .

فقال زوجها : وما الذى شغل بالك ؟

فقالت : إن الدرهم سقط منى فى السوقِ فاستحييت أن أبحث عليه ، وصعب علىّ أن أتركه ، فجمعت التراب من الموضع الذى سقط فيه ، وأتيتُ به فى المنديل ، وذهبتُ أُحضر الغربال لأغربلهُ ، فنسيت وأحضرتُ القدرَ ، ثم رجعت وأحضرتِ الغربال وأعطته زوجها وقالت : غربله أنت فإن بصرك أقوى من بصرى ، فجعل زوجها يغربلُ التراب ويتعب وهو معتقدٌ صدق زوجته فلم يجد شيئاً . فهل فى استطاعة رجل أن يخلص من هذا المأزق بسرعةٍ وبتلك الحيلة العظيمة ، فاحذر الجارية وما تدعوك إليه .

فقال له : لن أطاوعها ولن أقتل ابنى .

وفى اليوم الثامن دخل على الملك ابنه ، ومعه مؤدِّبه السندباد ، وكان بمجلسه وقتئذٍ الوزراء والعلماء ، والأمراء وكبراء الأعيان والوجهاء ، فحيا والده وقبل يديه ، وحيا الجالسين وحيوه . وفرح الملكُ بابنه فرحاً عظيماً وقال لمؤدبه السندباد : كنت السبب فى حجز ابنى سبعة أيامٍ أحاط بهِ الخطرُ فيها من كلِّ جانب ، ثم التفت إلى الجالسين وقال : لو كنت قتلت ابنى فمن يحملُ ذنب قتله أيحمله أبوه أم تحمله الجارية أم يحمله

مؤديه ؟ فسكت الحاضرون ولم يستطيعوا أن يجيبوا ، فقال السندباد لابن الملك : أجب أنت يا بنى ، فقال :

قدم على رجل ضيوفٌ ، فأمر جاريته أن تشترى لهم من السوق لبناً فى جرة ، وبينما هى راجعةٌ باللبن من السوق مرتْ من فوقها حدأةٌ ممسكة حية بمخالبها فألقت الحية شيئاً من سمها فى الجرة ، دون علم من الجارية ، وشرب سيدها وضيوفه هذا اللبن فماتوا لساعتهم ، فعلى من ذنبهم ؟

فاختلف الجالسون فى الحكم ، فمن قائل بأن الذنب على من شربوا ، ومن قائل بأن الذنب على الجارية ، ومن قائل بأن الذنب على الحية .

فقال السندباد لابن الملك : وما رأيك أنت يا بنى ؟

فقال : لا ذنب على أحد ، ولكن آجالهم انتهت ، وقدر الله أن تكون موتتهم على هذه الحالة .

فعجب القوم من ذكاء ابن الملك وجعلوا يدعون له ويثنون عليه ويقولون ما أحدَّ ذكاءك ! ! وأكثر علمك ! ! وما أصدقك فى حكمك ! !

فقال ابن الملك : لست أعلم من الأعمى ، وابن الثلاث السنين ، وابن الخمس السنين ، فطلبوا إليه أن يحدثهم عن هؤلاء الثلاثة ، فقال :

كان تاجرٌ رحالةٌ يسافر ببضاعته إلى كثير من البلدان التى تروج فيها بضاعته ، فأراد أن يسافر إلى بلدة من البلاد ، وسأل القادمينَ منها عن أكثر البضائع رواجاً فيها .

فقالوا : حطب الصندل ، فإنه غالى الثمن ولا يستغنى عنه أحدٌ ولن تبور تجارته فى تلك البلدة .

اشترى التاجر بجميع ما معه من المال حطب الصندل وسافر إلى تلك البلدة ، وكان وصوله إليها فى غروب الشمس فلقيته عجوزٌ تسرق غنما ، وسألته : من تكون أيها الرجل ؟

فقال : تاجرٌ غريبٌ، أتيت إلى هذه البلدة أبتغى فيها رزق ، فقالت : رزقك الله ، ويسر لك الأمور ، وأنصحُ لك أن تحذر أهل هذا البلد ، فهم قومٌ يمكرون بالغريب ليستولوا على ما معه .

نزل التاجرُ فى خان بالمدينة ، وسأله رجل فيه من أهلها :

من أنت ؟

فأجاب : تاجرٌ قدمتُ من بلدة . . . إلى هذه المدينة ببضاعتى .

— وما أحضرت معك من التجارة ؟

— أحضرتُ خشب الصندل ، فقد سمعت أنه تجارة رابحة فى مدينتكم .

فقال الرجلُ :

كذب عليك من أنبأك هذا ، فقيمته من قيمة الحطب الذى نتخذه وقوداً ، فأسف التاجر وقال فى نفسه ضيعت مالى فى حطب لا يباعُ ولا يشترى .

ثم سأله الرجل الذى هو من أهل المدينة عما أحزنه وغير شكله وسماحة وجهه .

فقال : وضعت جميع مالى فى خشب الصندل راجياً ربحاً وفيرًا ، فما كسبت ربحاً ، وما أبقيت مالا ؛ فقال الرجل : حينئذ وجب على أن أخفف عنك حملك فهل ترضى أن تبيعنى مامعك من خشب الصندل صاعاً بصاعٍ مما تقترحه من أنواع الثمن ؟

فقال التاجر : رضيتُ وقدرَ فى نفسه أن يأخذ ملء الصاع ذهباً ، وأخذ الرجلُ الصندل جميعهُ إلى منزله ، لينقُده هناك الثمن الذى يختار نوعه .

وفى الصباح مشى التاجرُ فى المدينة يتعرفُ ما فيها ، فلقيه رجل أعور ، فأمسكه وقال لهُ أنت الذى أتلفت عينى ، وحاول التاجر أن يفلت من يده فلم يستطع ، واجتمع الناسُ وقالوا للأعور : أمهله إلى غد ليحضر لك ثمن عينك التى أتلفها .

وقال رجل منهم ، وأنا أضمن لك عودته وإعطاءك ثمن عينك ، فخلَّى الأعورُ سبيله ، ومشى التاجر وكان قد انقطع حذاؤه وهو بين الجماعة وأمام الأعور ، فوجد إسكافيا وقال له : أصلح لى هذا الحذاء ولك عندى من الأجر ما يرضيك، وتركه التاجرُ وانصرف ، فعثر بجماعةٍ جالسين يلعبون فجلس معهم ينفسُ عنه ما حل به من الغمّ ، فجعلوا يرغبونه أن يلعب معهم فأطاعهم .

ولما غلبوه قالوا له : إما أن تشرب البحر وإما أخذنا جميع ما تملك من المـال .

فقال لهم : أمهلونى إلى الغد ، فأمهلوهُ وتركهم إلى مكانٍ منعزلٍ فجلس

فيه حزيناً ، ومرت به العجوزُ التى نصحت له وحذَّرتهُ أول قُدُومه .

فقالت : أراك حزيناً متألماً ، فماذا أصابك من أهل هذه المدينة الظالمين ؟
فحكى لها جميع ما جرى له . فقالتْ :

سأدلك على من يخلصك ويدفع عنك شر هؤلاء الذين أضرُّوكَ واحتالوا فى نهب أموالك فاسمع منى ما أقول : فى مكان . . . بابه واسعٌ مرتفع ، وهو مفتوح على الدوام ليلا ونهاراً ، فإذا دخلته وجدت فناء واسعاً على جانبه الأيمن إيوان مفروش بالحصير الملون ، وجلس فيه شيخ أعمى مقعد ، وهو عالم ذكىٌّ ، ماكر ساحر ، بصير بتصريف الأمور ، وبيان الصالح منها والفاسد ، والرابح والخاسر ، حلاَّل للمشكلات المعقدةِ ، فتَّاح للأبواب المغلقة ، تأتيه الأشرار فيعرضون عليه حوادثهم ، وهو يبين لهم فيها وجوه الفوز والخيبة ، والربح والخسارة ، فاذهب ليلتك هذه إلى هذا البيت مستخفِياً ، واختبئْ فى مكان قريب من مجلس ذلك الشيخ الأعمى ، بحيثُ تراهم وتسمع أقوالهم ، وهم لا يرونك ولا يحسون لك حركة ولا يسمعون همساً ، وستعرف منه سبل انتصارك عليهم ونجاتك من أيديهم .

ذهب التاجرُ الغريب إلى هذا البيت واختبأ فيهِ حتى اجتمع الأشرارُ وقعدوا أمام هذا الشيخ الأعمى ، وكان من بينهم خُصومه الأربعة ، فتقدم إليه صاحب خشب الصندل ، وقال : إنى ابْتعت خشب صندلٍ من تاجرٍ غريب صاعاً بصاعٍ مملوء مما يختارُه ذلك التاجرُ .

فقال الأعمى : قد غلبك التاجرُ .

فقال الرجلُ : ولم غلبنى ؟

فقال : إذا طلب منكَ ملءَ الصاعِ ذهباً فهل تعطيه ؟

فقال الرجلُ : نعم أعطيه وأكون الرابح .

فقال الأعمى : فإن طلب منك ملء الصاع بَراغيث نِصْفُها ذكور والنصف الآخر إناث فماذا أنت فاعل ؟ فسكت الرجل وعلم أنه مغلوب :

وتقدمَ الأعور وقال : لَقِيَنى اليوم رجل غريب فادعيتُ عليه أنه أتلف عينى، وما أخليتُ سبيله حتى ضمنه أحد الناس، على أن يأتينى غداً وَيعطِينى عن عينى التالفة، فقال الأعمى: غرمت وغلبك، فقال الأعور: وكيف ذلك ؟

فقال : له أن يقول لك : العين بالعين والسن بالسن والأذن بالأذن ، فاقلع عينك السليمة ، وأنا أقلع عيناً من عيونى ، ونزنُ كلا منهما ، فإنْ تساوت عينى وعينك فهى فيها ، وإلَّا أعطيتنى دية عينى ، وتكون بذلك قد غرمت الدية ، وفقدت عينك الثانية ، وبقى هو بعَين واحدة يبصر بها ، فسكت الأعورُ وعلم أنه لم يفز بشىء .

وتقدم الإسكافُ إليه فقال :

أصلحتُ اليوم حذاء رجلٍ على أن يعطينى ما أرتضيه ، فقال الأعمى لو أراد أن يأخذ حذاءهُ دون أن يعطيك شيئاً تفعل .

فقال الإسكافُ : وكيف ذلك ؟

فقال الأعمى : سيقول لك : إن السلطان هُزِمت أعداؤه ، وكثرت أولاده ، وقويتْ أنصاره وجنوده ، أرضيت أم لا ؟ فإن قلت : رضيت ،

أخذ نعله وانصرف . وإن قلت : لا ، أخذ نعله وضربك به وانصرف ولم تستطع أن تفعل شيئاً . فسكت أيضاً وعلم أنه مغلوب .

وتقدم جماعة اللاعبين وقالوا : مرّ بنا رجل غريب فاستملناه إلى اللعب معنا ومراهنتنا فغلبناه وقلنا له : لا نُعفيك من الغرم ودفع ما عليك حتى تشرب هذا البحر ، فإن شربته أعفيناك وأعطيناك ما معنا من النقود .

فقال الأعمى : غلبكم وفاز بنقودكم ، فقالوا : وكيف ذلك ؟ فقال : سيقولُ لكم : أمسكوا فم هـــذا البحر وناولونى إياهُ وأنا أشربه فلن تستطيعوا ذلك وحينئذ يأخذ أموالكم .

فعلموا أنهم قد غلبوا وخسروا أموالهم ، ثم انصرفوا وانصرف التاجر .

وقد فهم من الأعمى وجوه خلاصه وفوزه . ومكث فى خانه حتى يجيئه خصومه .

وفى الصباح أتاه من راهنهُ على شرب البحر فقال التاجر له : أمسك فمُه وناولِنى إيَّاه وأنا أشربهُ ، وإلاّ غرمْت لى مائة دينار وأعْفيتك من هذه المراهنة ، فأعطاه مائة دينار وانصرف غارماً .

وأتاه الإسكافىُّ بحذائه بعد أن أصلحهُ . فقال له التاجر : لقد غلب السلطان أعداءه ، وكثر أولاده وقوى جنده وأنصاره ، أرضيت أم لا ؟ فقال الإسكافى : رضيت وأمرى إلَى الله ، وناوله حذاءه وانصرف ولم يأخذ منه شيئاً .

وجاءه الأعور فقال له التاجر : اقلع عينك السليمة وأقلَعُ عيني ؛ فإن تساوتا في الوزن ، كانت العينُ بالعين ، وإلاَّ غرمت دية عيني التي كنت السبب في قلعها بادِّعائِكَ الكاذب ، فقال الأعور : أَقِلْني من هذه القضية ، فقال التاجر : أَقَلْتُك منها على أن تعطيني مائة دينار وإلا رفَعْتها إلى السلطان ليجزيك بما ادَّعَيْت باطلا ، فأعطاهُ مائة دينار وانصرف نادماً .

وحضر إليه الرجل الذي اشترى منهُ خشب الصندل ليُعطيه ثمنهُ ، فقال التاجر : ماذا أحضرتهُ ثمناً لخشبي ؟ فقال : إن أردت أن أملأ لك صاعاً ذهباً بصاع من خشبك فعلت ، فقال التاجر لا يُرضيني إلا أن أملأ الصاع براغيث نصفها ذكور والنصف الآخر إناث ، فقال الرجل : لا أستطيع ذلك فخذ خشبك ، فقال التاجر : آخُذُ خشبي ومعهُ عِوضٌ قدره مائة دينار ، فرد الرجل الخشب ومعهُ مائة دينار . ثم باع التاجر الخشب في المدينة ، وربح فيهِ ربحاً عظيما ، وسافر إلى بلده . قال ابن الملك : وهذا حديث الأعمى ، أما الحديث عن ابن الثلاث السنين فاستمعوا له :

كان رجل فاسق مغرماً بالنساء ، فسمع أَن في مدينة بعيدة عن مدينته امرأة جميلة ، فسافر إليها ، وأخذ معه هدية قيِّمة ليستميلها بها ، فلما وصل إلى مدينتها جعل يسأل عن منزلها حتى عرفهُ ، فذهب إليه وطرق بابه ، فقالت المرأة : من الطارق ؟ وذهبت إلى الباب ففتحتهُ ، فقال لها : رجل غريب يرجو أن تقبليه ضيفاً ، ولك مني هذه الهدية ، وناولها عِقداً له قيمتهُ ، فقالت المرأة : مرحباً بالضيف الكريم ، وأخذت منهُ العقد ،

وأدخلتهُ المنزل ، وأجلستهُ فى حجرة بها ابن صغيرٌ لها ، لم يبلغ من العمر إلا ثلاث سنين ، ثم استأذنت وقامت لتُهيِّئَ طعاماً للضيف ، فجعل الولد يبكى ويبكى حتى قلق الرجلُ وضاق صدره ، فنادى أُمهُ وقال لها : إن ابنك هذا شُؤْمٌ على نفسهِ وأهله ، فأجاب الولدُ من فوره : وما أنت إلا شُؤم ونكبة ، فقد سافرت من مدينتك أسيراً لشهوتك ودناءة نفسك ، طامعاً فى انتهاك الحرمات وظلم الأعراض وعقوق الفضيلة ، فأتعبت نفسك وخسرت مالك ، أما أنا فقد بكيت لأنى أحسست شيئاً فى عينى فأخرجتهُ بدموعى ، فأيُّنا شُؤم على نفسهِ وأهله وإنسانيتهِ ؟ ! !

فخجل الرجل وتسلل من البيت راجعاً إلى مدينتهِ ، وكان ذلك سبباً فى صلاحهِ واستقامتهِ . وهاكم الحديث عن ابن الخمس السنين :

اشترك أربعة من التجار ، وجمعوا رأس مال قدره ألفُ دينار وضعوها فى كيس ، وخرجوا ليشتروا بها بضاعة ، فمرّوا فى طريقهم ببستان أعجبهم ، واستمالهم جماله إلى أن يدخلوه ليستمتعوا بمحاسنهِ ومباهجه ، فأودعوا كيس الدنانير عند حارسته ، وشرطوا عليها ألا تعطيهم الكيس إلا فى حضرتهم أجمعين .

وأخذوا يجوسونَ خلال البستانِ ، بَينَ أشجارهِ وزُروعهِ ، وأزهاره ورياحينهِ ، فى متعةٍ منْ نسيمهِ العَليلِ ، وظلالهِ الوارفةِ ، وطيوره المغردة ، ومياههِ الجارية الصافية ، فقال أحدهم : لو غسلنا رءوسنا من هذا الماء الصافى وتطيبنا ! ! فقالوا : وأينَ الطِّيبُ ؟ فقال : ها هو ذَا معى ، فقال

آخر : وأين المشطُ الذى نُمَشط بهِ شَعرَنا ، فقال أحدهم : لعلَّ الجارية عندها مشط نستعيره منها ، وقال صاحب الطيب : وأنا الذى أحضر لكم المشط من عندها ، فقالوا : لا بأسَ ، فاذْهبْ وَلْتتلطَّف فى طلبه .

ذهب التاجر إليها وقال لها : أعطينى كيس الدنانير ، فقالت : لن تأخذهُ منِّى حتى تَحْضُرُوا جميعاً ، فقال لهم — وكانوا عَلَى مقربةٍ منهما — ليست براضية أن تعطينى شيئاً حتى توافقوا ، فقالوا لها : نحن الذين أرسلناه ، فأعطيه إياه ، ثم ذهبت به إلى المكان الذى حفظت الكيسَ فيه ، فناولتهُ إياهُ ، فأخذه وخرج من البستانِ وهرب .

ولما أبطأ عليهم ذهبوا إلى الحارسة فقالوا : أين صاحبنا الذى أعطيتهِ المُشْط ؟ فقالت ما طلبَ منى مُشطاً ، ولكنَّهُ طلب كيس الدنانير منِّى ، فأبيتُ أن أُعطيه إياه حتى تحضُروا جميعاً أو توافقوا ، وقد وافقتُم على إعطائه الكيس فأخذهُ وخرج من البستان مولِّياً . فأخذوها ورفعوا أمرهم إلى القاضى ، فحكم عليها لهم وألزمها بإعطائهم كيس الدنانير ، وضمِنها جماعة من أهلها كانوا حاضرين .

ومشت الحارسةُ إلى دارها حزينةً تدعُو على الظالمين وتسأل الله أن يكشفَ عنها هذا البلاء ، فلقيها غلام عمره خمسُ سنين وسألها : ما بالُكِ يا أُماهُ حزينةً متألمةً ؟! فاستصغرته ولم تعبأ بقوله . فكرر سؤاله مرةً ومرةً حتَّى أفْضت إليهِ بذات نفسها ، فقال الغلام : هاتى درهماً أشترى

به حلاوةً وأنا أشير عليك بما ينجيك ؛ ولما ناولته الدرهم فرح وقال : ارجِعى إلى القاضى وقولى له :

إن التجار قد شرطوا على ألا أعطيهم كيس الدنانير إلا فى حضرتهم أجمعين ، فليحضروا رابعهم ويأخذوا كيسَ دنانيرهم ، فسألهم القاضى — وكانوا لا يزالون فى الجلسة : أكان بينكم وبينها هذا الشرط ؟ فقالوا : نعم . فقال: أحضروا رفيقكم وخذوا معاً كيسكم ، ثم أخلى القاضى سبيلها .

فأعجب الحاضرون بابن الملكِ وفرح به أبوه ، ثم سأله عن قضية الجارية ، فقال : لعنها الله من جارية كاذبةٍ خاطئةٍ ، وأقسم لأبيه انها هى التى راودتنى عن نفسى وانى زجرتها وأنذرتها أن أَخبرك لتقتلها ، وقال أحد الوزراء : لعنها الله ، وقد أرادت أن تقتلك بالباطل قبل أن تقتلها بالحق فرمتك بالخطيئة عدواناً وكيداً ، فقال أبوه : قد حكّمتكَ فيها ، فقال : ابنه : يكفى أن تقذفها من قصرك وتنفيها من المدينة ، فأمر الملكُ بنفيها ، وعاش هو وابنه حتى انتهت أيامُهما من الحياة الدنيا .



أبو الحسن وجاريته تودُّد

كان في مدينة بغداد تاجرٌ كثيرُ المال عظيم الجاه ، كبِرت سِنُّه ولا يزالُ عقيماً لم يرزَق بولد ، فأكثرَ من التصدق ومساعدة الفقراء بماله ، ودعا ربه أن يهب له ولداً ، يخلُفهُ في ماله ، والقيام على استثماره ، والإنفاق منهُ في وُجوه الخير، من كل ما ينفعُ الناس ، ويخففُ عنهمُ أثقال الحياة، فاستجابَ الله دعاءه ورزقهُ على الكِبَر من زوجته ولداً أسماهُ أبا الحسن ، وأحسن تربيته وتعليمهُ ، حتى بلغ رشده ، وكان قرَّةَ عين أبيه وأمّه .

وذات يوم أجلس الرجلُ التاجر ابنه أبا الحسنَ بين يديه وقال له :

لقد كبِرتْ سِنيّ ، ودَنا أَجلي ، وقد أورثتك مالاً كثيراً ، وأحسنت تربيتك ، فاتق اللهَ فيما خلَّفتهُ لك من المال ، والتزم في القيام

عليه ما شرَعه الله ولا تغرَّنك كثرته ، فتقعد عن استثماره ، فإن المال وإن كَثر يذهبُ بالإنفاق ، ولا تتَّبع الهوى فيُضلّك عن سبيل الله ، وتبوء بالخسران المبين فى دنياك وآخرتك .

تَقبَّلَ أبو الحسن وصية والده بالسمع والطاعة ، ولم يمض إلا أشهرٌ معدودات حتى مرض التاجر أبو الحسن ومات ، فشيَّعه ابنهُ إلى قبره فى حفل جامع ، وأقام لهُ مأتماً يليق بمنزلته ، وتوافد عليه المعزون من كلَّ حدب يسلونه ويخفِّفون عنه وطأة الكارثة .

ومضت الشهور فأنستهُ والده وألهاه المال عن وصيته ، وأحاط به قرناء السوء ، فزينوا له إشباع النفس بلذاتها وشهواتها ، فجعل ينفق ويسرف حتى لم يبق له مما تركه أبوه إلاَّ جاريةٌ اسمُها تودُّد ، وكانت ذات جمالٍ فاتن ، وعلم واسعٍ ، وعقلٍ حكيم رشيد ، ولسانٍ فصيح .

رأتْ الجارية تودُّد فقرَ سيِّدها وإعساره ، وعزَّ عليها أن تراه فى هذا الضيقِ المؤلم ، فقالت له :

سأُشيرُ عليك يا سيِّدى بما يسعدك ويغْنيك : بعنى إلى الخليفة هارون الرشيد ، ولا تُفرِّط فىَّ حتى يعطيك ثمناً لى عشرة آلاف دينار ، فإن عظُم هذا الثمن فى رأْيه فقل له :

جاريتى هذه لا نظير لها فى العلم والأدب ، وإذا اختبرتَها عظمتْ فى نفسك ، وكان هذا الثمن قليلاً فيها . وإياك أن تبيعنى بأقل من عشرة آلاف دينار .

أخذ أبو الحسن جاريته وذهب بها إلى الخليفة هارون الرشيد ، فاستأذن وحيَّا ، ثم قال :

هذه جاريتي ، ورثتها عن أبي ، ورأيت أنها لا تصلُحُ إلاَّ لقصر الخليفة ، وقد جعلتُ ثمنها اثني عشر ألف دينار ، لما امتازت به من علم وحكمةٍ ، وإذا اختبرَها أميرُ المؤمنين وجدَها فوق هذا الثمن بكثير .

فالتفت إليها الخليفة قائلا :

ما اسمُكِ أيتها الجاريةُ ؟

اسمي تَودُّد .

ماذا عرفت من العلوم ؟

عرَفتُ يا أمير المؤمنين عُلوم الشريعة واللُّغة والنحوِ ، والرِّياضةِ والفلسفة والمنطق والحكمة والفلك ، وحذقت فنّ الموسيقى وأجَدتُ الضَّربَ عَلَى العود ، وعرفت من كلّ شيء ما لمْ يَعرِفهُ إلاَّ الرَّاسخون في العلم ، ولو أجلستني في حضرة العلماء وسألوني عما يُريدون لرأيتَ مِنّي ما يُرْضيكَ ويَسُرُّكَ ، ويجعلُني موضعَ تقديرِكَ ، فقال الخليفة لِسَيِّدها : أنتَ وجاريتُك ضيفان عندي ، وسأُحضِرُ العلماء ليسألوها فيما ادَّعته لنفسها ، فإن أجابت وفازت أعطيتك الثمن الذي اقترحْته أو أكْثر منه ، وَإلاَّ فأنتَ أولى بها ، وليس لنا فيها حاجة ؛ وأمرَ رجالهُ أنْ يذهبوا بهما إلى دار ضيافته .

كَتبَ الخليفةُ إلى عامله بالبصرة أن يُرسلَ إليه إبراهيم بن سيَّار

النّظام المعروف بقوّةِ الحُجّة ، والتّفوّق فى الشّعر والبلاغة والمنطِق ، ومعهُ جمهرةٌ من كبار القراء والعلماء والأطبّاء والمنجّمين ، والحكماء والفلاسفةِ والمهندسين .

حضر إبراهيم بن سيار وجماعةُ العُلماء مُلبِّين دعوة الخليفة ، وجلسوا بين يديه ، فَأَمَرَ أن تُحْضَر الجارية تودّدُ ، فلمّا حضرت أجلسها على كرسى مُحلى بالذهب أُعِدَّ لها ثمّ قال للعلماء :

هذه جارية تدّعى أنها بلغتْ فى العلوم والفنون ما لمْ يبلغه إلاَّ الرّاسخون فى العلم ، وقد دعوْتُكم لاختبارها ، وها هى ذى بين أيديكم وليسألها كلٌّ منكم فيما حَذِق من العلوم والفنون ، حتى نعرف لها قدرَها ، فقالوا : سمعًا وطاعةً لِأمير المؤمنين ، ثم سادَ الجلسةَ صمتٌ وسكون ، فقالتِ الجارية :

من فيكمْ العالمُ الفقيهُ المحدِّث ؟ فقالَ أحدهُم :

أنا مَن تسألين عنه . فقالت :

سلْ ما شئت . فجعل يسألُها وتُجيب :

منْ رَبُّكِ ومَنْ نَبيُّكِ ؟

ربِّيَ اللهُ الواحد الأحد ، الفرد الصمَد الذى بيدهِ ملكوتُ كلَّ شىء وإليه المصيرُ ، ونبيِّى محمد بن عبد الله خاتَمُ الأنبياء والمرسلين ، أرسلهُ الله بالهدى ودِين الحقِّ ، صلى الله عليه وسلم .

أخبريني عن إمامكِ وقبلتِك وإخوانك ، وطريقتك ومنهاجك .



القرآنُ الكريم إمامى ، والكعبة قبلتى ، والمؤمنون إخوانى ، والخيرُ طريقتى ، والسُّنةُ النبوية منهاجى .

بِمَ عَرفتِ اللهَ تعالى ؟

عرَفتُ ربِّى بالعقلِ .

وما العقلُ ؟

العقلُ موهُوبٌ ومكسُوب .

أمَّا العقل الموهوب ، فقد خلقه الله تعالى يهدِى به من يشاء من عبادِه ، وأما العقل المكسوبُ فهوَ الذى كَسبَه المرء بالتعلم والخبرة وحُسنِ المعرفةِ

وأين العقل ؟

قذَفهُ اللهُ فى القلب ، واصَّاعَد شُعاعُه إلى الدماغ حتى استقرَّ .

وبِمَ عرفتِ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ؟

عرفتُهُ بالقرآن الكريم الذى تحدَّى بِهِ العرب ، وبالبراهين والمعجزات التى ظهَرتْ عَلَى يديه تصديقاً لهُ .

وَما الفرائضُ الواجبةُ والسُّننُ القائمةُ ؟

الفرائضُ الواجبة خمس : شهادةُ أن لا إلهَ إلاّ الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحجُّ البيت لِمَن استطاع إليهِ سبيلا ، والسُّننُ القائمة الليلُ والنهار والشمس والقمر ، وهنَّ يبنين العمرَ والأمَل ، وابنُ آدمَ غافلٌ عنْ أنهنَّ يهدمن الأجَل .

وما شعائرُ الإيمان ؟

الإيمانُ والصلاة والزكاةُ والصومُ والحجُّ والجهاد واجتنابُ الحرام .

بِمَ تقومين إلى الصلاة ؟

أقومُ إلى الصلاة بنيَّة العبودية والإقرار بأنَّ ربِّىَ اللهُ الذى خلق كلَّ شىء .

ماذا فرض عليكِ قبل أن تقومى إلى الصلاة ؟

الطَّهارةُ وَسترُ العوْرة والوُقوف على مكانٍ طاهر والتوجُّه إلى القبلة والقيام والنية .

بِمَ تخرجين من بيتك إلى الصلاة ؟

أخرج من بيتى إلى الصلاة بنية العبادة .

ما مبدأُ الصلاة ؟ وما تحريمها ؟ وبم تتحللين منها ؟

مبدأُ الصلاة الطهور ، وتحريمها تكبيرة الإحرام ، وأتحلل منها بالسلام .

وما رأيك فى الصلاة ومن تركها ؟

الصلاة عماد الدِّين ، وهى صلة بين العبد وربِّه ، وهى تنير القلب ، وتضىء الوجه ، وترضى الرحمن ، وتغضب الشيطان ، وتدفع البلاء ، وتقى المرء شر الأعداء ، وتسبغ الرحمة ، وتكشف السوء والنقمة ، وتقرِّب العبد من مولاه ، وتنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومن تركها عامداً متعمداً فلا حظَّ له فى الإسلام .

ما مفتاحُ الصلاة ؟

الوضوء .

وما مفتاحُ الوضوء ؟

التَّسْمِيَةُ .

وما مفتاحُ التَّسْمية ؟

اليقين .

وما مفتاحُ اليقين ؟

التَّوكلُ .

وما مفتاح التَّوكلُ ؟

الرَّجاء .

وما مفتاحُ الرجاء ؟

الطَّاعة .

وما مفتاح الطاعة ؟

الاعترافُ لله بالوحدانية ، والإقرار له بالربوبية .

وما فرائض الوضوء ؟

سِتةُ أشياء عند الإمام الشافعى رضى الله عنه : النيةُ ، وغسل الوجه ، وغسل اليدين مع المرفقين ، ومسح بعض الرأس ، وغسل الرجلين إلى الكعبين ، وسُننه عَشرة : التسمية ، وغسلُ الكفين ، والمضمضة ، والاستنشاق ، ومسح جميع الرأس ، ومسح الأذنين ظاهرهما و باطنهما بماء

جديد ، وتخليل اللحية الكثة ، وتخليل أصابع اليدين والرجلين ، وتقديم اليمنى على اليسرى ، والطهارة ثلاثاً ثلاثاً ، والموالاة ؛ فإذا فرغ المرء من من الوضوء قال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، اللهم اجْعَلنى من التوابين واجْعلنى من المتطهّرين، سبحانك اللهم، وبحمدك أشهَد أن لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك ؛ فقد ورد فى الأثر أن من قالها عقِب كل وضوء فتحت له أبواب الجنة الثمانية تدخل من أيّها شاء . والوضوء يَطْرُد الشيطان ، ويحفظ من جور السلطان .

وماذا يفعل المرء إذا استيقظ من نومه ؟

يَغْسِل يديه ثلاثا قبل أن يباشر بهما عملاً .

وما فروض الغُسل ؟ وما سُنَنه ؟

فُروض الغُسل: النيّة وتعميم البدن بالماء ، وسُنَنه الوضوء قبله والتدليك، وتَخليل الشعر .

وما أسبابُ التيمم وما فروضه وسُنَنه ؟

أسْبابُ التيمم : فقد الماء والحاجة إليه والخوف والمرض ، وفروضه النيةُ وضربة للوجه وضربة لليدين ، وسننه : التسمية وتقديم اليمنى على اليسرى .

ما شروط الصلاة وأركانها وسننها ؟

شروطها طهارة الأعضاء ، وستر العَوْرة ، ودخول وقتها ، واستقبال القبلة ، والوقوف على مكان طاهر ، وأركانها : النية ، وتكبيرة الإحرام ،

والقيام للقادر عليه ، وقراءةُ الفاتحة « وبِسْم الله الرَّحْمٰنِ الرَّحيم » آية منها عَلَى مذهب الإمام الشافعى ، والركوع والطمأنينة فيه ، والاعتدالُ منهُ والطمأنينة فيه ، والسجود مرتين والطمأنينة فيهما ، والجلوس بين السجدتين والطمأنينة فيه ، والتشهد الأخير ، والجلوس له ، والصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم فيه ، والتسليمة الأولى ؛ وسنن الصلاة : الأذان ، والإقامة ، ورفع اليدين عند الإحرام ، ودعاء الافتتاح ، والتعوذ ، والتأمين مع الإمام ، وقراءة آيات من القرآن بعد الفاتحة ، والتكبيرات عند الانتقال من ركن إلى آخر ، وقول المصلى عند الاعتدال من الركوع : سمع الله لمن حمده ، ربنا لك الحمد ، والجهر فى موضع الجهر ، والإسرار فى موضع الإسرار ، والتشهد الأول ، والصلاة على الآل فى التشهد الأخير ، والتسليمة الثانية .

فيم تجب الزكاة ؟ وما مقدارها ؟

تجب الزكاة فى الذهب إذا بلغ عشرين مثقالاً ، وفيه نصف مثقالٍ ، وما زاد فبحسابه ، وتجب فى الفضة إذا بلغت مائتى درهم ، وفيها خمسة دراهم وما زاد فبحسابه . وفى الإبل وأول نصابها خمس وفيها شاةٌ وفى عشرٍ شاتان وفى خمس عشرة ثلاث شياه وفى عشرين أربع شياه وفى خمس وعشرين بنت مخاض وفى ست وثلاثين بنت لبون وفى ست وأربعين حقّة ، وفى إحدى وستين جذعة وفى ست وسبعين بنتا لبون وفى إحدى وتسعين حقتان وفى مائة وإحدى وعشرين ثلاث بنات لبون ثم فى كل أربعين بنت لبون وفى كل خمسين حقة ، وتجب فى الأغنام وأول نصابها أربعون وفيها شاة أو ثنية من المعز وفى مائة وإحدى وعشرين شاتان وفى

مائتين وواحدة ثلاث شياه وفى أربعمائة أربع شياه ثم فى كل مائة شاه ، وتجب فى الزرع والثمار ونصابها خمسة أَوْسُق ، ولا زكاة فيما دون ذلك لما روى عن الشيخين : (ليس فيما دُون خمسة أُوسق صدقة) ، وفيها إن سقيتْ بماء السماء أو السيْح العشر ، وإن سقيت بدولاب أو نحوه نصف العُشْر .

ما فروض الصوم وما سننه ؟

النية قبل طلوع الفجر ، والإمساك عن الطعام والشراب وكل مفطر من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، وسننه تعجيل الفطْر وتأخير السحور، وتركُ الكلام إلا فى خير أو ذكرٍ أو تلاوة القرآن .

ما صلاة العيدين ؟

صلاة العيدين سنة ، وهى ركعتان بلا أذانٍ ولا إقامة ، يُكبر فى الركعة الأولى سبعاً وفى الثانية خمساً سوى تكبيرتَيِ الإحرام فى الأولى والقيام فى الثانية .

وما صلاة كسوف الشمس وخسوف القمر ؟

هذه الصلاة سنة ، وهى ركعتان فى كل ركعة ركوعان وقيامان وسجودان ، ثم يجلس المصلى ويتشهد ويسلم . وهى بغير أذان ولا إقامة .

وما صلاة الاستسقاء ؟

ركعتان بغير أذان ولا إقامة، ثم يخطب الخطيب، ويدعو الله ويتضرع محوّلا رداءه ، بأن يجعل أعلاه أسفله .

وما صلاةُ الوتر ؟

أقلها ركعة وأكثرها إحدى عشرة .

وما صلاة الضُحى ؟

أقلها ركعتان ، وأكثرها اثنتا عشرة .

وما الاعتكاف ؟

المكث فى المسجد ، وشرطهُ النيّةُ .

متى يجب الحج ؟

يجب الحج على من استوفى البلوغ والعقل والإسلامَ والاستطاعة ، وهو واجبٌ فى العمْر مرةً واحدة .

ما فروض الحجّ ؟

الإحرام ، والوقوف بعرفةَ ، والطوافُ ، والسعىُ ، والحلق أو التقصيرِ .

ما فروضُ العُمْرةَ ؟

الإحرام بالعمرة ، وطوافُها وسَعيها .

ما فروض الإحرام ؟

التجرد من المخيط ، واجتناب الطِّيب ، وترك كلٍّ من حلق الرأس وتقليم الأظافر وقتل الصيد والزواجِ .

هناك أشياء أخرى واجبة فى الحج ، فما هى ؟

التلبية وطَواف القدُوم وطواف الوَداع والمبيت بمزدلفة وبمنى ورمى الْجِمَارَ .

ما الجهاد ؟

القِتَال لإعلاء كلمة الله ، من غير ظلم ولا اعتداء ، ويشملُ الْجهاد بالنفس والمال ، ولا بدَّ من التحريض عليه ، لقوله تَعالى : « يأَيُّها النَّبىُّ حرِّض المؤْمنينَ على القِتَالِ » ، ومن ماتَ فيه ماتَ شَهيدًا ، وجزاؤُه الجنة، قال تعالى : إنَّ الله اشترى منَ المؤمنينَ أنفُسَهمْ وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيَقتُلون ويُقتلون وعدًا عليهِ حقًا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من اللهِ ، فاستبشرُوا ببيعِكُمُ الذى بايعتُم به .

مَا فُرُوض البَيع ؟

الإيجابُ والقَبولُ ، وأن يكون المَبيعُ مَمْلوكاً لِلبائع قادرًا على تَسْليمِهِ ، خَالياً من الرِّبا .

ما الشىء الذى لا يجوزُ بيعُ بعضهِ ببعض .

ما كان منْ صِنفٍ واحدٍ لاَ يجوزُ بيعُ بعضه ببعْض كالتمرِ بالتمرِ والقمح بالقمحِ .

ما معنى الكلمات الآتية فى اللغة : الوضُوء ، الغُسلُ ، الصومُ ، الزكَاةُ ، الحجُّ ، الجهادُ ؟

الوُضوء التنظُّف ، والغُسل التطهير ، والصومُ الإمساكُ ، والزكَاةُ الزِّيادةُ والنَّماء ، والحجُّ القصد ، والجهاد الدفاع والقتال .

وَبعد هذا أعلن هذا العالم فى المجلس أن الجاريةَ عَلَى علمٍ واسعٍ ، وأنها أجابتْ عن كل سُؤالٍ إجابةً صادقة سديدةً .

ثم قالتْ الجارية :

أتسمحُ أن أسألك عن أشياء كما سألتنى ؟ فقال :

سَلى يا جاريةُ فإنى مُجيبكِ بقدْر ما يتسع لهُ علمى وفهمى . فقالتْ :

مَا مِهَام الدين ؟

الشهادةُ ، والصلاةُ ، والزكاةُ ، والصومُ ، والحجُّ ، والجهادُ ، والأمر بالمعروف والنهىُ عن المنكر ، والأُلفةُ ، وطلب العلم .

مَا سر الإسلام ؟

صحةُ العقد ، وصدق القصد ، وحفظ الحد ، والوفاء بالْعهد ، فقالت :

إن لم تجب عن هذا السؤال الأخير أخذت منك جُبتك إيماء إلى عجزك وإفحامك ، فقال :

لك ما أردت فهاتى سؤالك . فقالت :

ما فروعُ الإسلام ؟ فسكتَ ولم يَحِرْ جَواباً ، فقال الخليفة :

أذكريها وأنا أعطيك جُبَّتهُ ، فقَالت :

التَّمسك بكتاب الله ، والاقتداء برَسوله ، وكف الأذى ، وأكل الحلال ، واجتناب الحرام ، ورَدُّ المظالم إلى أهلها ، والتوبةُ ، والتفقهُ فى الدين ، ومحبة الخليل ، وتصديق المرسلين ، والتأهب للرحيل ، وقوة اليقين ، والعفو عند المقدرة ، والقوة عند الضعف ، والصبر عند المصيبة ،

ومخالفة الشيطان ، ومجاهدة النفس ، والإخلاص لله تعالى فى السر والعلانية ، فأعطاها جُبته ، وسكَتَ مغلوباً .

وتقدم عالم آخر وسألها :

ما آداب الأكل ؟

الاعتراف بأن الله تعالى هو الذى أطعم وسقى ورزق ، والشكر لله على ما أنعم ، والتسمية وغسل اليدين ، والأكل بثلاث أصابع ، والأكل مما يلى الآكل ، وأن يُصَغِّرَ اللُّقمة ، ويقلل من النظر إلى جليسه .

وَما شكر الله تعالى ؟

هو صرف العبد جميعَ ما أنعم الله عليه فيما خُلق لأجلهِ .

ما الإيمانُ ؟

أن تؤمن بالله وملائكته وكُتُبه ورسله واليوم الآخر ، وأن تُؤْمن بالقدر خيره وشرّه .

أخبريني عن ثلاث تُذْهبَ ثلاثاً .

الحسنات يذهبنَ السيئاتِ ، والإسرافُ فى المال يذهبه ، وسوء الخلق يذهبُ الْوَقار والمحبة .

أخبريني عن شيء ونصف شيء ، ولا شيء .

الشيء هو المؤمن ، ونصف الشيء هو المنافق ، وغير الشيء هو المشرك .

ما أنواع القلوب ؟

القلوب منها السليم ، والسقيم ، والمُنيب ، والنذير ، والمُنير . ومنها ماهو معلقٌ بالدنيا، وما هو معلق بالآخرة، وما هو عامر بذكر الله تعالى، فسكت العالم بعد أن أبدى أعجابهُ بالجارية ، ثم قالت :

سأسألكَ كصاحبك فإن عجزتَ أخذتُ جُبتكَ كما أخذت جُبته .

فقال : سلى ماشئتِ ، واللهُ ينصرنا . فقالتْ : ما الإيمان ؟

تصديق بالقلب ، وإقرارٌ باللسان ، وعمل بالجوارح ، ومن كمال الإيمان التوكل على الله ، والتفويض إلى الله ، والرِّضا بقضاء الله ، وأن تكون أمور المرء لله ، وأن يحب ويكره ويعطى ويمنع لله .

أخبرنى عن فرض الفرض ، وفرضٌ فى ابتداء كل فرض ، وفرض يحتاج إليه فرض ، وفرض يستغرقُ فرضاً ، وسُنة داخلة فى الفرض ، وسنة يتم بها فرض ، فأفحم ولم يتكلم ، فأعطاها الخليفةُ جبةَ هذا العالم وأمرها أن تُجيب عن سؤالها هذا ، فقالت :

فرض الفرض معرفة الله تعالى ، والفرض فى ابتداء كلّ فرضٍ شهادة أن لا إله إلاّ اللهُ وأن محمدًا رسول الله ، والفرضُ الذى يحتاج إليه فرض الوضوء ، والفرض الذى يستغرق فرضاً الغسلُ ، والسنة الداخلة فى الفرض تخليل الأصابع واللحية الكثة ، والسنة التى يتمُّ بها فرضُ الختان .

وتقدم القارئُ إليها ، فسألها :

كم فى القرآن من أسماء الأنبياء ؟

الأنبياء الذين ذكرتْ فى القرآن أسماؤهم خمسةٌ وعشرون ، وهُمْ : آدمُ

ونوحٌ وإبراهيمُ وإسماعيلُ وإسحاقُ ويعقوبُ ويوسُفُ واليَسَعُ ويونسُ ولُوطٌ وصالحٌ وهودٌ وشعيبٌ وداودُ وسليمانُ وذُو الكِفْلِ وإدريسُ وإلياسُ ويحيي وزكريَّا وأيوبُ وموسَى وهارونُ وعيسى ومحمدٌ صلواتُ الله وسلامهُ عليهم أجمعين .

ما أسماء الطير التى ذكرت فى القرآن ؟

البعوضُ والنحْلُ والذُّبابُ والنمل والهدهدُ ، والغراب والجراد والأبابيلُ وطير عيسى عليه السلام وهو الخفاشُ .

ما فضل « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ؟

جاء فى الأثرِ أن « بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ » ما قرِئت عَلَى شىء إلا بورِكَ فيه .

هل أُنزِل القرآن جملةً ؟

أُنزِل مُتفرقاً على حسبِ الوقائع والأحوال .

ما أول آية نزلت ؟

اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنْسَان ما لم يعلمْ .

منْ كان يَكتبُ القرآن فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم ؟

أُبَىُّ بن كعب وزَيد بن ثابت وأبو عبيدةُ وعُثمان بن عفان رضى اللهُ عنهم. ولما سكت عن سؤالها قالت له : إن لم تجب عن سؤالى هذا أخذتُ جُبتك، ثم قالتْ : اذكُرْ آيةً فيها ثلاث عشرةَ كافاً، وآية فيها ست عشرة ميما ،

وآيةٌ فيها مائة وأربعون عيناً ، فعجز عن الإجابة ، وأخذت جبته ، وقالت :

الآية التى فيها ثلاث عشرة كافاً هى آية الدَّيْن فى سورة البقرة ، والآية التى فيها ست عشر ميما ، هى قوله تعالى فى سورة هود : يا نوح اهبط بسلام منا . . . والآية التى فيها مائة وأربعون عيناً قوله تعالى : واختار موسى قومهُ سبعين رجلاً لميقاتنا . . لأنَّ لكل رجلٍ عينين .

ثم شَهِدَ لها القارئُ بالفضل والمعرفةِ .

وتقدم الطبيبُ فقال :

أخبرينى عن خلق الإنسان وآدم .

خلق آدم من تراب ، وسمى آدم لأدمتِهِ أى سُمْرة لونه ، أو لأنه خلق من أديم الأرض ، وكان الإنسان نُطفة فى قرار مكين ثم كان علقةً فضغة فعظماً ، ثم كسا الله العظم لحما ثم سواه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

كم فى رأس ابن آدم من بطن ؟

ثلاثة بطون مشتملة على خمس قوى تسمى الحوَاس الباطنية ، وهى: الحس المشترك والخيال والمتصرِّفة والواهمة والحافظة .

أخبرينى عن عظم الإنسان .

رأسٌ وجذع وأطرافٌ ، ويشمل الرأس الجمجمة والوجه ، ويشمل الجذع العمود الفقرِى والصدر والحوض ، وأما الأطراف فهى اليدان والرجلان .

ما عروق الجسم ؟

كثيرة لا يَعلم عددَها إلا الله ، وأصلها الوتين . وقد جُعِلت الرحمة في الكبد ، والضحك في الطحال ، والمكر في الكُلْيَتَيْن ، وجُعِلَت الرئتان مروحة ، والمعدة خزانة ، والقلب عماد الجسم إذا صلح صلحَ الجسد كله وإذا فسد فسد الجسد كلّه .

ما علامات المرض الظاهرة في الجسم ؟

الحرَارةُ وتعْرف باللمس ، وصفرة العينين علامة اليَرَقان ، ونحولُ الظهر دلالة على ذات الرئة .

ما سبب وجع الرأس ؟

إدخال الطعام على الطعَام ، ومن أراد السلامة فليجعَل من بطنه ثلثاً لِطَعامه ، وثلثاً لشرابه ، وثلثاً لنفسه .

ما علامة الصفْراء ؟

صفرة اللون ، ومرارة الفم والجفاف ، وضعف الشهوة ، وسرعة النبض ، وتسبب الحمى المحرقة وقُرحة الأمعاء .

ما علامة السوداء ؟

الشهوة الكاذبة ، وكثرة الهموم والهستريا .

متى يشرب الإنسان هنيئاً ؟

إذا شرب بعد الأكل بساعة ، وأن يَمُصَّ مصّاً ولا يَعُبَّ عبّاً .

ما الطعام الذى لا يورث مرضاً ؟

كلُّ طعام يؤكل بعد الجوع ، ولا يملأ المرء منه بطنه ؛ فإن المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء .

وما رأيك فى الحمّام؟

لا ينبغى أن يدخله شبعان .

وما رأيك فى الفاكهة ؟

تؤكل فى إقبالها وتترك متى انقضى وقتها .

وما رأيك فى الخمر ؟

قال تعالى : « إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

وما رأيك فى الحجامة ؟

هى لمن امتلأ جسمه دماً .

ما الشىء الذى إذا غرقَ عاش ، وإن تنفسَ الهواء مات ؟

السمكُ ، فإن حياتهُ فى أنْ يُحبسَ فى الماء فإذا خرَج منهُ إلى الهواء ماتَ .

أتعرفينَ شجاعاً يبيض ؟

الثعبانُ .

ثم سكتَ الطبيبُ فقالتْ: سأُلقى عليكَ سُؤالاً واحداً ، فإنْ لم تجبْ عنهُ أخذتُ ثيابك ، فقال : أرجو أن أوفقَ إلى الصواب . فقالت :

أخبرنى عن شىء مستدير ، ضئيلِ القدر والقيمةِ ، مقيَّدٍ وهو غير

آبق ولا سارق ، مطعون لا فى قتال ، مجروح لا فى نضال ، مسكنُهُ الأطرافُ فى مساكنِ الأشراف ، فسكت الطبيبُ وَلم يُجبْ ، فأعطاها ثيابهُ وقالتْ : إنَّهُ الزرّ والعُروَة .

وتقدم المنجم إليها وسأل : أخبريني عنِ الشمس وطلوعها ؟

تطلع الشمسُ منْ منازلَ فى المشرق ، وتغرب فى منازل فى المغرب ، قال تعالى : « فلا أُقسم بربِّ المشارق والمغارب » ، وقال تعالى : « هو الّذِى جعلَ الشمسَ ضياء والقمر نورًا وقدرَه منازل لتعلمُوا عدد السنين والحساب » .

أخبريني عن الكواكب السبعةِ وعن البروج .

أما الكواكب فهى عطاردِ والزهرة والمريخُ والمشترى وزُحَل ، ونبتون وأورانوس ، وأما البُرُوج فهي : السَّرطان والحمل والثور والجوزاء والأسد والسنبلةُ والميزان والعقرب والقوسُ والجدىُ والدلوُ والحوت .

ثم أراد المنجم أن يعجزها ويفحمها فسألها :

يا جارية ، هل ينزل هذا الشهرِ مطرِ ؟ فأطرقت ساكتةً حتى ظُنَّ أنها عجزتْ ، ثم قالت : لقد أبان هذا السائل عن جهله ، ولو حفظ القرآن ما سألنى هذا السؤال ، ولعرف أن خمسةً لا يعلمها إلا الله تعالى؛ ثم قرأت قوله تعالى : « إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيثَ ويعلمُ ما فى الأرحام وما تدرى نفسٌ ماذا تكسب غدًا وما تدْرِى نفسٌ بأى أرض تموتُ إن الله عليمٌ خبيرٌ » .

ثم أطرق المنجم ساكتاً، فقالت له : ما أقسام النجوم ؟ فلم يجبْ، فأخذت ثيابه.

وتقدم الفيلسوف فسأل :

ما الدهرُ ؟

ساعاتُ الليل والنهار ، وهيَ مقاديرُ جَرَى الشمس والقمر في أفلاكها ، قالَ تعالى : « والشمسُ تجرى لمستقرٍّ لها ذلك تقديرُ العزيز العليم » . « لا الشمس ينبغى لها أن تُدْرِكَ القمر ولا الليلُ سابِق النهار وكلٌّ في فلك يسبحون » . ويطلقُ الدهرُ على الله ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا تَسُبُّوا الدهر فإن الدهرَ هو الله » .

أَخبريني عن خمسة أكلوا وشربوا وما وُلِدُوا ولا خرجوا من ظهر ولا بطن .

فأجابته :

آدم وشمعون وناقة صالح وكبش إسماعيل والطير الذى رآه أبو بكر في النار .

أَخبريني عن أربع في الجنة لا من الجن ولا من الإنس ولا من الملائكة .

فأجابته :

ذئب يعقوب ، وكلب أصحاب الكهف ، وناقة صالح، وحمار العزير .

أَتعرفين رجلاً صلَّى لا في الأرض ولا في السماء ؟

سُليمان عليه السلام صلّى على بِساطه والريح تحمله .

أخبرنى عن رجل حَرمَت عليه أمَةٌ فى الصبح ثم حلَّت له فى الظهر ثم حرمت عليه فى العصر ثم حلت له فى المغرب ثم حرمت عليه فى العشاء ثم حلت له فى الصباح .

رجلٌ رأى أمةَ غيره فى الصبح فهى حرامٌ عليه ، ثم اشتراها فى الظهر فحلَّت له ، ثم أعتقها فى العصر فحرمت عليه ، ثم تزوجها فى المغرب فحلَّت له ، ثم طلقها فى العشاء فحرمت عليه ، ثم راجعها فى الصباح فحلَّت له .

هل تعرفين قبراً مشى بصاحبه ؟

حُوت يونس عليه السلام حين ابتلعه .

ما البقعة التى طلعت عليها الشمس مرّةً واحدة ولا تطلع عليها مرةً أخرى إلى يوم القيامة ؟

قاع البحر الذى ضربه موسى بعصاه فانفلق .

هل تعرفين شيئاً يتنفس بلا روح ؟

قال تعالى : « والصبح إذا تنفس » .

كم عدد حمام طائر ، حَطَّ بعضهُ فوق شجرةٍ ، وحطَّ بعضه الآخر على الأرض تحت هذه الشجرة ، فقالت حمامةٌ من اللائى حطَطْن فوقَ الشجرة للحمام الذى حطَّ على الأرض تحتها : إن طلعت واحدةٌ منكنّ إلينا فوق الشجرة كان عددُنا ضعف عددِكنَّ ، وإن نزلت حمامة منّا

إلى الأرض كان عددُنا يساوى عددكنَّ ؟

الحمَامُ كله اثنتا عشرة حمامةً ، حطَّ فوق الشجرة سَبعٌ ، وحطَّ على الأرض خمسٌ .

فأطرق الفيلسوف ثم قال : هـذه ثيابى تخذيها ولا داعى لأن تسأليني .

وتقدم عالم آخر فسألها :

ما أَوَّلك ؟ وما آخرك ؟

أولى التراب وأخرى التراب .

ما شىء أوله عدم وآخره روح ؟

عَصا موسى عليه السلام حين ألقاها فإذا هى حيَّة تسعى بإذن الله تعالى وقدرته .

أخبرينى عن أنثى من ذكر وذكر من أنثى .

فقالت : حواء من آدم ، وعيسى من مريم .

أخبرينى عن نار تأكل ولا تشرب ، ونار تأكل وتشرب ، ونار تشرب ولا تأكل ، ونار لا تشرب ولا تأكل .

نار الدنيا تأكل ولا تشرب ، ونار الشمس تشرب ولا تأكل ، ونار جهنم تأكل وتشرب ، والقمر لا يأكل ولا يشرب .

ما الشىء الذى يمشى صامتاً متكلماً ؟

القَلَمْ .



ما شيء لهُ لحمٌ وليس له دمٌ ولا ريش ، يؤكل مطبوخاً ومشوياً ، له لونان أحدُهما كالفضة والثانى كالذهب ؟

البيضة .

أخبرينى عن آكلةٍ من غير فم ولا بطن ، إن أنت أطعمتها انتعشت ونمت ، وإن أنت سقيتها ماتت .

إنها النـار .

خليلان محرومان من اللذة ، يحفظان الناس من كل آفة ، يبيتان متعانقين ، وعند طلوع الصبح يفترقان ، فما هما ؟

إنهما مصراعا الباب .

ذات ذوائب تجرُّها من خلفها ذاهبةً جائية ، لم تذق عينها طعم النوم ، ولم تذرف دمعةً فى حياتها ، عارية وتكسُو الناس فما هى ؟

إنها الخياط « الإبرة » .

ما الشيء الذى له لذةٌ أحلى من الشهد ؟

الابن النجيب البار بوالديه .

ما شيء أقطع من السيف ؟

اللسان .

ما شيء أسرع من السم ؟

عين الحسود .

ما الحق الذى لا ينكره صاحب الباطل ؟



الموت .

ما الذى يجعل المرء فى عذابٍ كعذاب القبر ؟

الابن الفاسد .

ما موت الحياة ؟

الجهل .

ما الدّاء الذى أعيا صاحبه ؟

سُوء الخُلق .

فسكت ثم أعطاها ثيابه .

فأُعجب الخليفة بها وقال : أتعرفين لُعبة الشطرنج ؟

فقالت : حيا الله أمير المؤمنين ، نعم ، أعرفها وأُجيدها ؛ فأحضر لها الشطرنج وتقدم إليها أحد الماهرين فيه فغلبته مرّتين ، وفى الثالثة قالت له :

سألعب معك هذه المرة من غير « فرس » وَزير ورُخّ أيمن وفَرس أيسر ، فلعب معها وهو على يقين أنه غالبها ، ولكنها أبطلت يقينه وغلبتهُ .

ثم أحضر الخليفة آلات الطرب فأسمعته ما أثلج صدره وأنعشه ، فقال لها :

بُورِكَ فيك ، ورحم مَنْ علَّمك ورباكِ ، وأعطى سيدها مائة ألف دينار ، والتفت إليها قائلاً :

اطلبي مني ما تشائين .

فقالت : أرجو أن تردّني إلى سيدى أبى الحسن .

فزاد ذلك فى إعجابه بها ، وردّها إليه ومنحها خمسة آلاف دينار ، وجعل سيدها نديمه ، وأجْرى عليه كل شهر ألف دينار .

وعاشت مع سيدها فى أرغد عَيشٍ وأهنئه ، وعرف لها سيدها وفاءها له ، وحرصها عليه ، كما شكَرَ للخليفة سابغ نعمته وجزيل عطائه .

رقم الإيداع		٣٤٤٩ / ١٩٩١
الترقيم الدولى	977-02-3241-6	ISBN

١٨١ / ٩٠ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

ألف ليلة وليلة

هذه طبعة جديدة من هذه المجموعة التى تنتمى إلى التراث الشعبى.. والتى نالت إهتمامًا عالميًا فى الشرق والغرب.. وترجمت إلى كل لغات العالم..

وتمتاز هذه الطبعة بحسن الصياغة التى تناسب عقول الشباب والناشئة.. وتخلو من الشوائب التى توجد فى طبعات كثيرة..

إنها واحدة من عيون التراث الذى تحرص دار المعارف على تقديمه إلى القارئ العزيز..

صدر منها:

١ - شهر زاد ودنيا زاد
٢ - السندباد البحرى
٣ - قمر الزمان
٤ - الصياد والعفريت
٥ - معروف الإسكافى
٦ - الأحدب والخياط
٧ - عبدالله البرى وعبدالله البحرى
٨ - أبو الحسن وجاريته تودد
٩ - الحصان المسحور
١٠ - على بن بكار وشمس النهار
١١ - على الزئبق ودليلة المحتالة
١٢ - علاء الدين والمصباح العجيب
١٣ - على بابا



دار المعارف

قرش جنيه
٣,٥٠